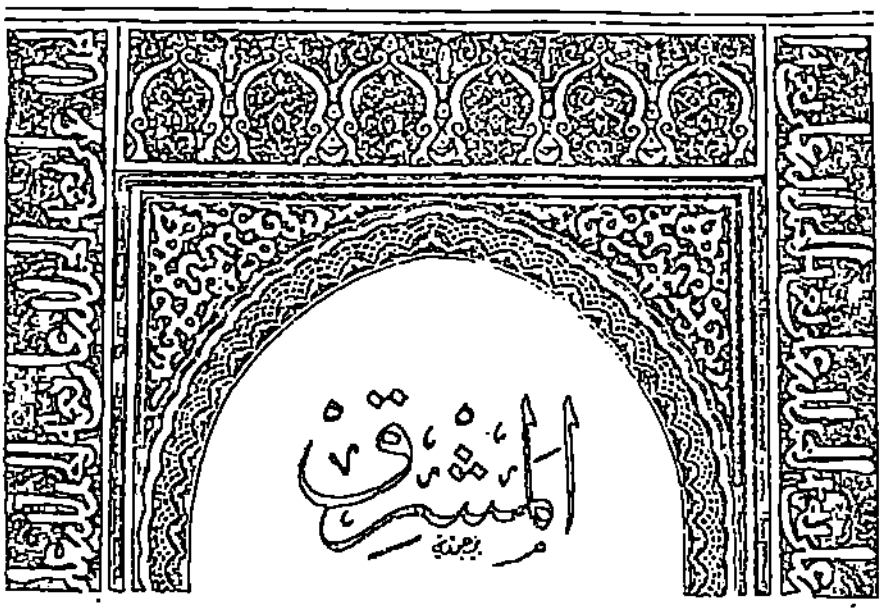

السنة التاسعة والثلاثون — كانون الثاني – اذار ١٩٦١

فُسَيْفِساء أَنطاكية*

تفاعُل التأثير اليوناني والتأثير الشرقي

في الفن السوري

بقلم الاب رينه موتر د
مدير معهد الآداب الشرقية

لقد كشفت لنا حفريات دُورا - اوروبوس عن آثار عديدة امكنتنا تمييز الخصائص العامة لذاك الفنّ الوسيط بين اليوناني والفارتي ، او اليوناني والايراني . دلّت تلك الآثار على فنّ مصطلح عليه يستند الى تمثيل المظاهر الطبيعية والرمز اليها ، لا الى تصويرها بحدّ نفسها ، متقيّدًا كل التقيّد بناموس المواجهة ، راميًا الى التمثيل الجمهوري او الاجتماعي . فهو يرسم الملك في ابّهته ، او الطبقات الاجتماعية مثلًا ، دون ان يدقّق في رسم

* من محاضرات معهد الآداب الشرقية في فرع « التاريخ والاثريات » .

الافراد . اما اساوبه فيتناول الموضوعات نفسها ، يراجعها دون تنويع ليولد التأثير الكتلي الشامل . وهو ، فوق ذلك ، فنّ تلخيصي ، وبالتالي فنّ ابتدائي ساذج لا يرى الّا الخطوط الاساسية في المصوّرات فيحوّلها ، او يعمل على تحويلها ، الى هذه الخطوط . وبالطبع فهو لا يحتاج الّا الى بُعدَين من الأبعاد الهندسية ، مكتفياً بالطول والعرض ، غير متجاوز الى الجهد في توليد الشعور بالعمق ، وفي تساوق الخطوط والألوان سبيلًا الى هذا الشعور . بيد ان هذا لا يمنع الواقعية التي امتاز بها الفنّ المذكور . وكثيرًا ما رأيناه يتبسّط بدقة في رسم زخارف الثوب ، او « جوهر » السيف الملكي ، او هيئات الحيوان المختلفة ، سبعاً كان او طائرًا .

كلها ميزات فارقة تفصل هذا الفنّ الدُوري عن الفنّ اليوناني الهيليني الرامي ، قبل كلّ شيء ، الى تمثيل الطبيعة ؛ المتصف بالإبهام ، والفردية ، العامل على وضع مصوّراته في الحياة الطلقة ، كما تظهر باجسامها وهياكلها ، وفقاً لشريعة الأبعاد الثلثة .

❦

على ان الأثر الشرقي تغلّب على الأثر الهيليني في فنّ الحدود الشرقية من سورية أيونانية الرومانية . فما عسى ان يكون عمل هذا الأثر في عاصمة سورية السياسية ، في انطاكية ؟

ولا يخفى ان التأثير في فنّ انطاكية يعني التأثير في الفنّ السوري باجماله ، بل التأثير في فنّ المناطق الغربية التي تأثرت بدورها بمذهب انطاكية في توليدها مظاهر الفن الجديدة .

وانه لمن حسن الحظّ ان تكون الحفريات ، التي بوشرت في انطاكية منذ السنة ١٩٣٢ ، قد اتاحت المواد الوافرة للقيام بهذا الدرس .

من الحقّ ان نهنئ جامعة برنستون الذين قاموا بالحفريات ، بمعاونة جان لاسوس ، الاستاذ حالياً في جامعة ستراسبورغ ، لم يوفقوا الى منحوتات فخمة ، ولا الى شيء من تلك الآثار الرائعة الحافلة ببعض التواقيع الشهيرة ، من التي كانوا يأملون العثور عليها في مثل تلك الأرض الغنية ولكنهم اكتشفوا مجموعة عجيبة من آثار الفسيفساء اغنت المتاحف العديدة من متحف اللوفر ، الى متاحف

بلتيمور ، وبرنستون ، ووُرسستر في الولايات المتحدة ، الى متحف انطاكية بالطبع ، بل الى محفل الفنون الجميلة في هونولولو . . .

تحتوي هذه الفسيفساء على أثمن الشواهد التصويرية في العصور اللاحقة بالعصر المدرسي وكثيرًا ما كان العلماء يأسفون لانفصام الحلقات الفنية بين عهد تصاوير بومبي وعهد الفسيفساء التي تزين جدر الكاتدرائيات في رومة ورافنة الراقية الى القرنين الخامس والسادس . حتى كان اكتشاف فسيفساء انطاكية ، فسُدت الثلم ، وتتابعت سلسلة الشواهد التصويرية .

لم يكن همّ المنقّبين نقل الفسيفساء اولًا . انما كانت غايتهم العمل على وضع تخطيط لانطاكية القديمة ، وفقًا لما ورد عن ذلك في كتابات الاقدمين . وقد اكثر هؤلاء من الكلام عن اهمّ آثار المدينة ، ووصفوها وصفًا عامًا امكن العلماء ان يستخرجوا اسماء شوارعها المهمّة ، ومواقع آثارها بالنسبة بعضها للبعض الآخر . وهكذا توصل اوتفريد مولّر (Müller) ، في العام ١٨٣٩ ، الى وضع تخطيط لانطاكية القديمة .

فكان قصد المنقّبين الأوّل ان يصلوا — لا الى الشارع الأعظم الآخذ من الشرق الى الغرب ، والذي لا يزال اتجاهه معروفًا في قسم من طريق حلب - انطاكية — بل الى احد الشوارع العمودية ، ذاك الذي كان يقع على جسر العاصي فيفضي الى الجزيرة ، وفيها المقام الملكي . ولنا الأمل بان نعرف يومًا ما قيمة المكتشفات في هذا الموضوع ، وايّ تخطيط يمكن وضعه للمدينة القديمة .

ولم تخلُ آثار الفسيفساء نفسها من افادة المنقّبين في هذا الباب . فجاءتهم فسيفساء يقطو بالمعلومات التخطيطية الجمّة .

كُشفت هذه الفسيفساء المشهورة في ايلول ١٩٣٢ ، في احدى القرى القائمة مقام دفنه القديمة ، بعناية مصلحة الآثريات ، وبادارة المرحوم كلود برو-ست (Cl. Prost) ، وقد فرشت ارضًا ذرعها ٧.٢٠ امتار في ٧ امتار.[1] (الرسم ١)

١) انطلب : Jean Lassus, *Antioch-on-the-Orontes*, I. pp. 114 sqq.

اما تصميم هذه الفسيفساء فبسيط : تقوم في وسطها دائرة فيها دُمية امرأة اسمها ميكالوبسيكيا ، كما يُقرأ في الكتابة المصوّرة حول رأسها . ولا يخفى ان هذا الاسم اليوناني يعني « عزّة النفس » التي تمثلها المرأة المصوّرة . وحول هذه الدائرة مُثلث اربعة مشاهد لمراك الحيوانات ، وستة مشاهد صيد . وقد فُصل بين هذه الموضوعات باربعة اشجار هَرَميّة الشكل من الحور — كما يُستنتج من لونها الاخضر المائل الى السواد — تشير الى حدود المستطيلات فتفصل بينها ؛ ثم باربعة اشجار مستديرة تملأ الفواصل العَرْضية .

وحول هذه المشاهد كلها إطار عريض ، جلّاب للنظر ، مُثلت فيه آثار بنائية ، وعدة مشاهد من حياة الشارع . وقد عرف الاستاذ لاسوس في هذا الإطار رسوم اهم بنايات انطاكية في اواخر القرن الخامس .

ولا شكّ في ان هذه المشاهد المتعدّدة المحصورة في الفسيفساء تدلّ على مهارة الفنّان وحذقه ، وقد توصّل الى ان يعرض امام الجالسين في القاعة او المتكئين في جوانبها ، اكثرَ ما يمكن من المناظر ، يرونها مباشرة ، كما انهم يدركون سائرها بسهولة ، وان اضطرّوا الى النظر اليها بانحراف .

هذه مهارة الفنّان في تأليفه . فما هي قيمته في التلوين ؟

نظرة دقيقة الى الوان الدائرة الوسطى تكفي للحكم في حسن ذوقه ونجاحه في إخراج رسمه الفخم : (الرسم ٢)

يبلغ قطر الدائرة الوسطى ١٣١ سنتيمترًا . تظهر فيها « عزّة النفس » بشكل امرأة قويّة الأنف ، صغيرة الفم ، رماديّة العينين . لون بشرتها يميل الى الوردي الأزهر تخفّفه أظلال بنفسجيّة لليكية . ولون شعرها وحاجبيها أسود . وقد اوضح بروز أرنبة الأنف خطٌّ أخضر .

اما شعرها فقد كفّته شريطة صفراء . وازدانت اذناها بلؤلؤتين بيضاوين علقت كل منهما بسلسلة من ذهب . ولبست قسطانًا ابيض اقفلته على الجيب بنيقةٌ فيها الكثير من الحجارة الكريمة المصقولة ، تتتابع وردية وخضراء ، مزخرفة الحواشي بالاسود والذهبي ، متصلة احدها بالآخر بصفّين من المكعّبات

الرسم ١

هيئة قُسْنِطاء أنطاكية بكاملها

الرسم ٢ : صورة « عزّة النفس »

الذهبية . وقد اتشحت السيدة بوشاح اول اصفر اللون طرحته على الكتف اليمنى ، وألقت على اليسرى وشاحاً آخر ورديًا . ورفعت بيدها اليمنى وردة اشارت بها الى الحاضرين، جاعلة في اليسرى اناء اصفر حوى الكثير من الورود.

ولم يشرح احد هذه الاشارة قبل الاستاذ هنري سيريغ (Seyrig) ، فقال ان « عزّة النفس » هذه ترمي بالورود الى الابطال المنتصرين على الخوارج. وهؤلاء الابطال معروفون باسمائهم المدوّنة الى جنبهم ، وهم : ميلياگر ، أكتيون ، تيريزياس ، نرسيس ، أدونيس (الرسم ٣) ، هيبوليت.

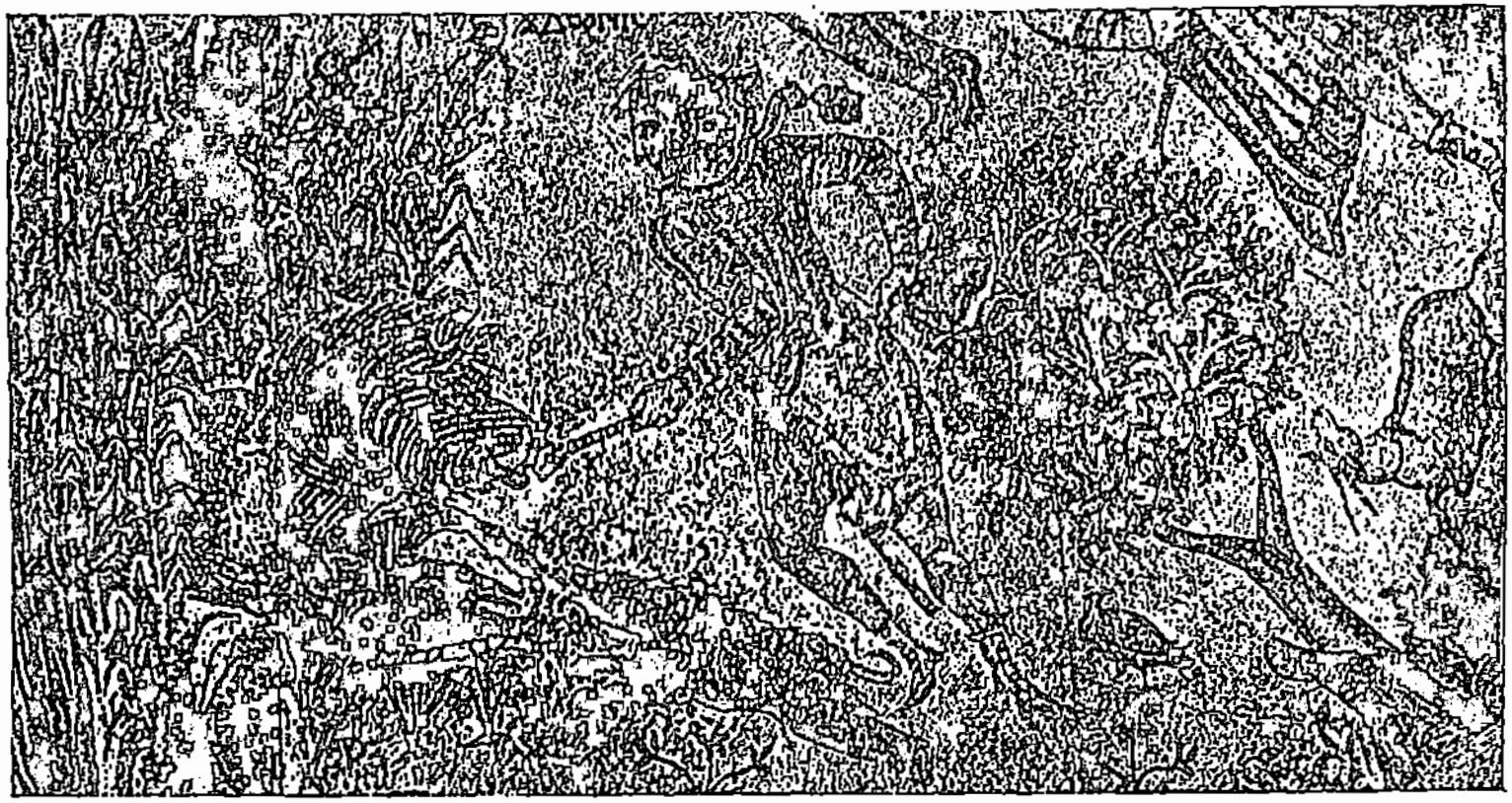

الرسم ٣ : أدونيس يطعن الخنزير البرّي

ولا شك في ان فكرة المصوّر ، كما بيّنها الاستاذ گرابار (Grabar) ووافقه الاستاذ گلانفيل دوني (Downey) ، قصدت تمثيل « عزّة النفس » التي تدفع عظماء الأبطال الى الصيد ، الى تلك الملاهي الملكية التي طالما اعتادها ملوك المشرق ، واليونان ، بل امبراطرة الرومان من امثال هادريانوس وقسطنطين. ولم ينقل العلماء عن فرض غير ما تقدّم من الشروح لموقف هذه السيدة ، فزعم الاستاذ شارل پيكار (Picard) انها تمثل الامة سيئة المشورة ، تدلّ على الطمع الوبيل الذي يهيب بالابطال فيدفعهم الى تقليد الآلهة ، فيعرّضهم لغيرتهم وغضبهم. على ان هذا الشرح وامثاله يبدو على شيء من التكلّف ، بعيداً عن مظاهر الرسم الواضحة .

اما الإطار التخطيطي فيذكّرنا بأثر مشهور يمثل خارطةً جغرافية للارض المقدسة في القرن السادس . اكتشف في شرقي الاردن ، وعُرف بفسيفساء مادبا[1] .

نرى في هذا الإطار سلسلة من البنايات المتتابعة تتخلّلها مشاهد من حركة الشوارع والاسواق نعرف منها ، بواسطة الكتابات التي ترافقها في الرسم ، حوض كَتْتالي ، وميدان دفنه المشهور في نصوص الاقدمين . ثم عددًا من القصور ، والصروح العامة ، واخيرًا جسر العاصي ، واحد ابواب المدينة . فهو أشبه بدليل من الادلّة الرومانية التي كان يستند اليها في القرون الوسطى ، زوّار المدينة الأبدية .

قلنا ان قسماً من هذا الإطار يمثل ميدان دفنه . وهو المشهد الذي كانت تُقام فيه الالعاب الاولمبيّة منذ عصر الامبراطور كومود حتى السنة ٥٢٩ . واذًا فان هذا التاريخ يفيدنا الحدّ الادنى لصنع الفسيفساء . نرى الجدار الخارجي للميدان ، وفي وسطه بابٌ يحفّ به برجان مكعّبان . وعلى اليمين ، في آخر نصف الدائرة ، برج عالٍ مربّع التصميم ، وعليه سقف احمر . وعلى مقربة منه رسم « حمام خاصّ » منسوب الى اردابوريوس . ونحن نعرف اردابوريوس هذا قائدًا للجيوش الشرقية في انطاكية ، في السنة ٤٥٩ . واذًا فهذا الحدّ هو

---

١) اطلب *MUSJ, XVIII*, 1934. pp. 163-166

الحدّ الاقصى لصنع الفسيفساء[1].

وقد استند الاستاذ لاسوس الى القسم المصوّر فيه جسر العاصي في تعيين ترتيب المباني المرسومة (الرسم ٤).

ومما يجدر بالذكر في واقعية هذا الفنّ، رسم احد الحمّالين، قرب الجسر، وقد شدّ الحبل الذي يربط حمله بيده، كما لا يزال يفعل، حتى يومنا هذا، حمّالو انطاكية، خلافاً لحمّالي بيروت الذين يشدّون هذا الحبل الى رؤوسهم.

ولنلاحظ ايضاً ان الاشخاص المصوّرين يحتذون الاحذية المنقلبة الأطراف، كما يفعل فلّاحو تلك البلاد في عصرنا كذلك.

١) اطلب J. Lassus, *op. cit.*, I, p. 132

هذا ما يمكن استنتاجه من درس تلك الفسيفساء التي هي من اعجب الآثار المكتشفة في انطاكية. ولكنها ليست الوحيدة. بل هناك في الـ ٢٣٩ صفيحة التي اخرجتها الحفريات في السنة ١٩٣٦ ، وفي نحو الـ ٢٠٠ بلاط الموصوفة في المجلد الثاني ، من انطاكية العاصي[1] ، قطع أقدم من فسيفساء بَقطر، وابلغ تأثرًا بالفنّ الهيليني .

ولا يخفى ان المشهد الأوسط، في فسيفساء بقطر نفسها ، على جماله ودقته، لا يظهر الاشخاص الّا في سطح واحد فليس من عمق، ولا من تساوق في الخطوط والأبعاد . ثم ان تلك الطيور بالوانها الزاهية ، تبدو مطروحة طرحاً لملء الفراغ بين تصاوير الخواري، فتؤيّد المظهر الاصطناعي المفتعَل في تأليف المشهد العام .

بخلاف هذا تبدو آثار الفسيفساء القديمة الراقية الى القرن الاول او الثالث، من التي كشفتها حفريات انطاكية ودفنه . واوضح مثال لهذه الأبلطة المتأثرة بالفنّ الهيليني فسيفساء كُشفت في انطاكية ، في الجزيرة، في إطار هندسي ، ظهرت فيها عدة مشاهد ، منها ما يمثل « رهان الشرب » او « مأدبة ديونيزوس وهرقل » . وهو مشهد طافح بالحياة ، على سطح رمادي اللون محمرّه ، تتناوبه الظلال من أخضر وردي وليلكي ، وتظهر فيه بوضوح باهر ، بشرة ديونيزوس البيضاء الوردية ، وجلد هرقل النحاسي . (الرسم ٥)

وما اشبه هذه الفسيفساء بتلك التي تمثّل حُكم فاريس الراقية الى ما بين السنة ٥٠ والسنة ١٠٠ للمسيح.[2] فتمكننا كلتاهما من الاشارة الى خصائص الفسيفساء في القرن الاول للمسيح . ونحن نميّز فيه المشهد من الإطار . اما الأول فيقلّد التصوير ويصنع في مُحترف الفنان ، مستعملًا مكعبات من الحجر او من معجون الزجاج مختلفة الاشكال والمقاييس ، حتى ان خطوطها تمثل تموّجات رشيقة . واما الإطار فيُصنع في المكان الذي توضع فيه الفسيفساء ، مستعملًا اشكالًا هندسية بمكعبات حجرية متساوية الأبعاد .

(١) *Antioch-on-the-Orontes*, t. II.

(٢) G. W. Elderkin, *Antioch-on-the-Orontes*, I, pp. 45 sqq.

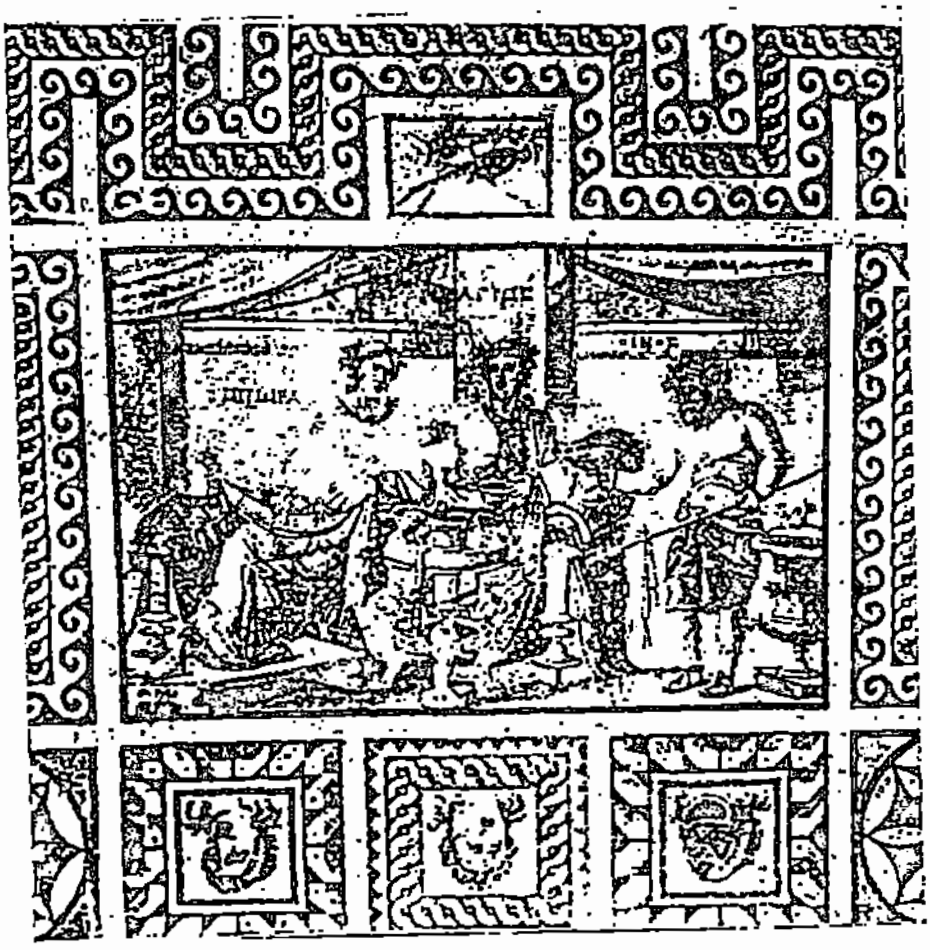

الرسم ٥ : مأدبة ديونيزوس ومرفل

اما ما يهمنا خاصة فهو الفن الذي أرخى مثل هذا المشهد . وهو الفن الاسكندري الآخذ بقسط وافر من الواقعية والايهام ، المستند الى قاعدة الابعاد المثلثة ، ومهارة تمثيل العمق . وهو ما نشاهده في كثير من فسيفساء بومبي .

واقرب مما تقدم الى فن بومبي ، في الموضوع ، لطمة فسيفساء ترقى الى القرن الثالث ، وتمثل تاجرًا يبيع تلاميذ كوبيدون . نرى فيها اولئك الفتية الصغار القساة القلوب ، بعضهم يستريح حاملًا بيده المشعل ، بينما الآخر يستعد لاطلاق

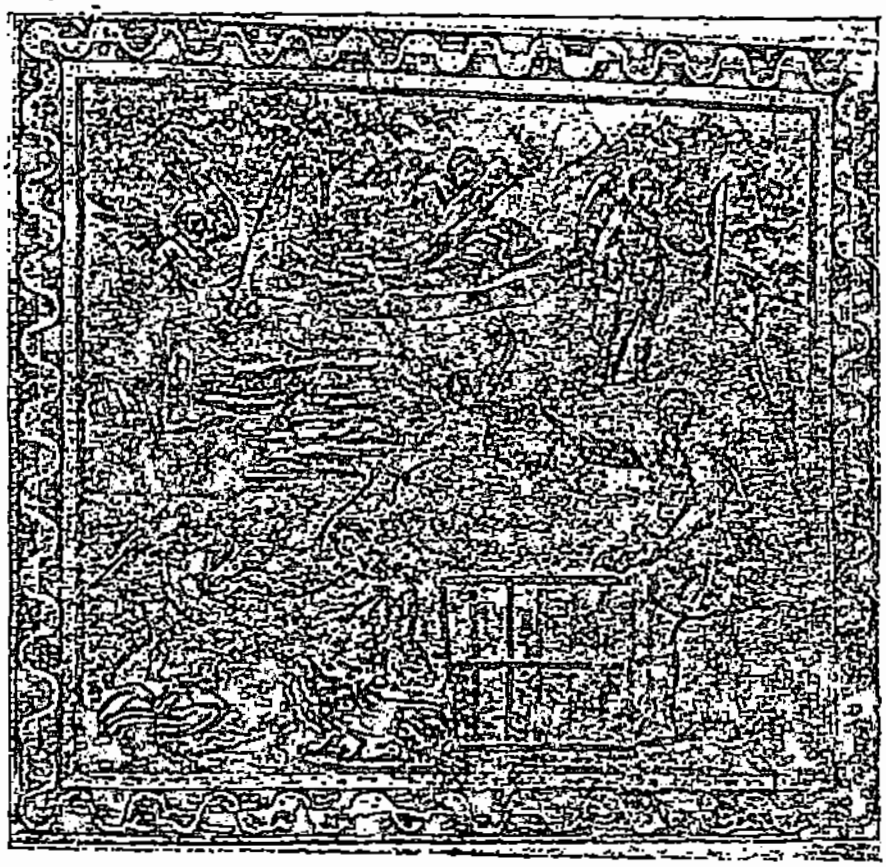

الرسم ٦ : تاجر يبيع فتائل كوبيدون

سهمه على تلب بعض البشر ، والثالث يلتهي بصيد السمك . وهناك اثنان ينصرفان إلى التلذذ بمشاهدة عراك الديوك . على انهما قد يتعرّضان لغضب الفلاح الشرس فيقبض عليهما ، كما قبض على كوبيدون السادس ، وسجنه في القفص مع سجين آخر . (الرسم ٦)

موضوع هذه القطعة اسكندري محض . الّا ان الاشخاص قد فقدو كثيراً من حيويتهم فبدوا في مستوى واحد ملصقين على سطح لا يزينه الا بضع اشجار . فليس شيء من تلاعب اضواء والنور ، وليس شيء من تفاوت الابعاد وظاهر العمق المعروفة في الفنّ الاسكندري .

من مظاهر هذا الانحطاط في الفنّ ، او التطوّر على الاقلّ ، ما نراه من الميل الى تمثيل الصور الرمزيّة. وأشهر هذه الرموز الانطاكيّة رسم « عزّة النفس » الذي رأيناه في فسيفساء بَقطو . ومنها قطعة في قصر من بناء القرن الثاني ، تُشرف اهمّ غرفه على رواق متعدّد الاعمدة ينتهي بحنيّة بشكل نصف دائرة ، ثم تُطلّ على البرّية.[1] وهو تصميم نراه في جميع آثار مصوّري الجنائن اذ ذاك ، اذا ما ارادوا الايهام بشعور العمق . اما البلاط فيمثل نيتون وثالاسّا ، وسط تسعة وثلاثين شكلًا من الأسماك وذوات الاصداف. ولا شك في ان الشخصين جميلان . ولكن المشهد يخلو من الآفاق الفسيحة ، كما يخلو من الحذق في ايهام الأبعاد .

وفي الرواق القريب بلاط يحتوي على رسمين ينفصلان باطار هندسيّ ، وهما ، كما يقول الاستاذ موريسه ، تجسيمان للحياة وغبطة المعيشة ، بيوس وتريفه ، مثالان واضحان للرمزيّة الهيلينية ، ولميل هذا العصر الغائص في التأملات الى تجسيم القوّات التي يختبرها في محيطه ، والى ترتيبها في نسق منظّم .

وها اننا نصل الى الابتذال الفنّي في تمثيل الفضائل المجسّمة . فلا شخصيّة ، ولا ميزات فارقة في تصوّرها . وكلّ هذه الصفات الادبية والفضائل المجسّمة التي يشيد بها الفنّ الرسمي تختصّ اولًا بصاحب السلطة ، بالملك الهيليني ، ثم بالامبراطور الروماني . ففي قفا النقود الرومانية ، تظهر « عزّة النفس » فتكلّل الابطال ، قاتلي الخوارج ، وهي تمثّل الفضيلة البطلية . اما « الحياة » التي تقابل « غبطة المعيشة » فهي من نصيب امراء العالم . ومن ارتفع الى المناصب العالية في وطنه ، او نال الثروة ، حقّ له ان يصبو الى هذه الفضائل السامية .

ولا يندر ان نرى بعض نوابغ الفنّانين يجدون ، حتى في القرنين الرابع والخامس ، إلهامًا حقًا في تمثيل هذه الرموز .

من ذلك قطعة فسيفساء وُجدت في دفنه ، ترقى إلى عهد قسطنطين الكبير

(١) Charles Rufus Morey, *The Mosaic of Antioch*, pp. 24-32. pl VII.

(٣٠٦-٣٣٧) وتمثل الفصول الاربعة في مشهد من اروع آثار الفن تأليفاً وألواناً[1] (الرسم ٧).

يبدو زخرف البلاط بمظهر سقف تتقاسمه تقاطيع العقد الرومانية . ولا يخفى ان اهم ما في هذا الإطار ، زخرفة الزوايا . وهو ما قام به الفنان فمثل فيها الفصول الاربعة :

ظهر الصيف متجسماً في شكل احدى بنات البحر المجنحة ، تظللها الهيبة والوقار ، وترتفع فوق باقة باهرة من ورق الكنكر . ورسم الفنان على الجهات الاربع اربعة مشاهد للصيد . وحول البلاط ، في الإطار الدائر ، سلسلة من مشاهد الحياة الريفية . وليس في هذه الرسوم المصغرة ما يبدو مأخوذاً عن أمثلة سابقة . انما هي اشبه بتصاوير المخطوطات اليونانية واللاتينية الراقية الى القرن الخامس ، كتصاوير مخطوطة ڤرجيل المحفوظة في المكتبة الوطنية بباريس ، او سفر التكوين المحفوظ في ڤينة . فهي تصور اكثر مما تمثل ، تجتمع فيها كل المصورات من بيوت وحيوانات واشجار ، ملتصقة على مستوى مسطح ذي بعدين ، مرتبة حول الراعي .

عاش الفن الاسكندري حتى القرن الرابع بدلالة تمثالي باخوس الفتي والشتاء الشيخ (؟) الموجودين في الرواق الهندسي الزخرف ، المتقدم فيضاء الفصول الاربعة .[2] اما تمثال باخوس فوافر الإشعاع حرارةً ولطفاً بما فيه من تزاوج لطيف بين دقائق الأصفر الخافت ، والاخضر ، والبنفسجي الادكن والليلكي . واما الشتاء فهو صورة دقيقة الصنع وفقاً لمثال حي .

وفي القرن الخامس نرى في بعض الآثار ان هذا التقليد الفني لم ينقض عهده تماماً . من ذلك تمثالان نصفيان او دُميتان للأرض ، ولفصل الصيف ، في فيضاء اكتشفت في دفنه . ولا تخلو المرأة التي تمثل الصيف بقبعتها القشية المربعة — مما يذكرنا بتصوير كارل ڤرنه للأمازونات — من لباقة معجبة . بيد ان الطريقة

(١) Morey, *op. cit.* pp., 37-38

(٢) Morey, *op. cit.*, p. 39

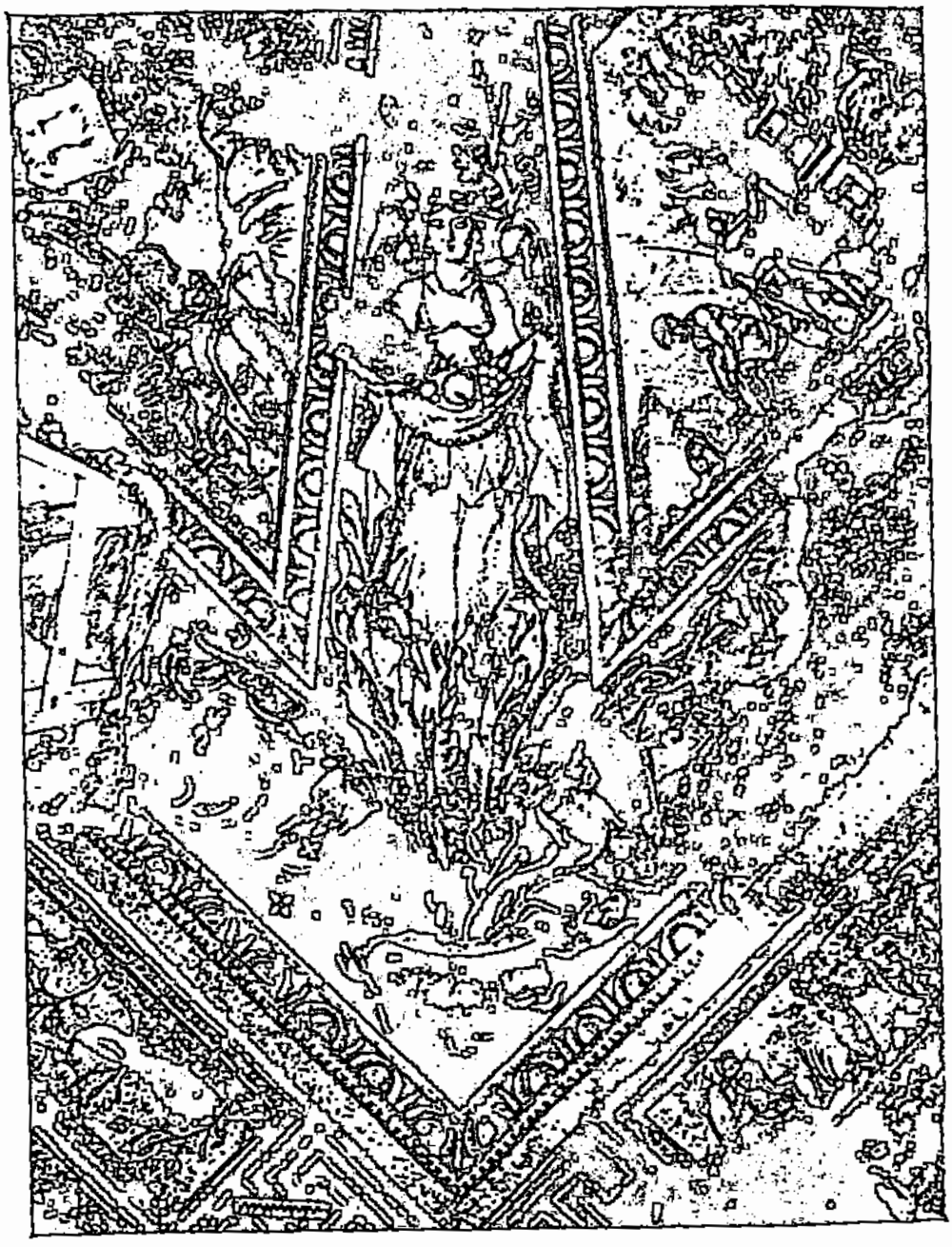

الرسم ٧ : رمز لفصل الصيف تحيط به بعض مشاهد العيد

التسطّحية في التصوير ، وعدم استخدام الامثلة الحيّة ، يدلّان على اننا في بدء انحطاط هذا الفنّ.

وقد آن لنا ان نترك هذه اللمحات الاخيرة من آثار الفنّ الاسكندري ، فنتجه نحو أبلطة من الفسيفساء يظهر فيها ، على اوضح مظهر ، أثر الفنّ الشرقي ، والفنّ الإيراني خاصّة . وهي ترقى ، في انطاكية ، الى النصف الثاني من القرن الخامس.

واشهرها بلاط فسيح تبلغ مساحته ١٠٫٨٠ امتار في ٨٫٨٠ امتار ، مفروش كلّه بالزهور مرتبة في مقطّعات هندسية . وفي وسطه تظهر صورة مركزية صغيرة بالنسبة لمساحة البلاط اذ لا يتجاوز طولها ١٩٦ سنتيمترًا . هي صورة الفونقس ، ذاك الطائر الخرافي الذي يحرق نفسه ثم يعود الى الحياة منبعثًا من رماده. (الرسم ٨)

الرسم ٨ : صورة الفونيقس

اما الاسلوب الفني في صناعة الفرش ، او سطح الفسيفساء ، فهو الاسلوب المعروف بالفارسي نسبةً الى فارس السمك لوجود الشبه بينهما . ويكون ذلك بترتيب المكعّبات الحجرية البيضاء على خطوط منحنية ، تندمج بعضها في البعض الآخر فتؤلف إطارات صغيرة تملأها صورة واحدة

تتكرر وتتتابع . وقد تكون هذه الصورة وردة او غيرها من الزهور، او طائرًا او رسمًا هندسيًا ملونًا ، كما نرى في نقوش السجّاد العجمي .

في هذه السجّادة من الفسيفساء ، يظهر بارزًا على الفرش السطحي ، تمثال الفونقس[1] ، في هيئة رائعة فيها من النصر والافتخار ، وكأنه منبعث حديثًا من رماده . اما لونه فتغلب عليه الصبغة الخضراء في جسمه ، يزيدها روعةً ظلالٌ بنّية وصفراء ، ولمحات بيضاء . وحول رأسه هالة من الليلكي الأكدر ، تخترقها اشعة خمرية وردية ، يزهر لونها كلّما ابتعدت ، وتتضاءل على ممرّها الوان الزهور الحمراء الوردية والخضراء .

فيكون مجمل التأثير مركّبًا من امتزاج الاخضر والأكدر الرمادي والوردي على مسطح ابيض متورّد .

وهناك إطار الصورة ، وعرضه نحو ٦٠ سنتيمترًا ، تأهله صورة أكباش متقابلة مجنّحة ، رائعة بألوانها . اما الجسم فلونه الاساسي بنّي محمرّ تتناوبه ظلال من البنّي المظلم ، وانوار من الأصفر والابيض . واما العين فبيضاء الحدقة ، سوداء الانسان . وفي عنق كل منها قلادة دقيقة حمراء اللون جميلة الوقع ، وكأنها تذكّر بالوان الورود المجاورة . اما الأجنحة فمتنوعة الألوان من رمادي ، وليلكي ، وبنفسجي وأحمر قرميدي ، وكلها معلّقة بشريطة من الأخضر الفاتع . (الرسم ١٠ ، ص ٢٠)

ولا شك في ان هذه المثلثات الاخيرة ترقى الى الفنّ الساساني . ولنا شاهد على ذلك في قطعة قماش ساسانية محفوظة في متحف الحرائر في ليون ، تمثل الأكباش المجنّحة نفسها ، تسير وفي اعناقها القلادة نفسها . وقد بيّن نولدكه (Noeldeke) ، ودارمستتر (Darmsteter) ، ثم تُلّ (Toll) ان الكبش

(١ J. Lassus, *La Mosaique du Phénix*. [M. Piot. t. 36, 1938.] pp. 81-122.

المجنح هو رمز هوارينو ، في الآثار الساسانية ، اي رمز الحظ او السلطة الشاهانية .

وان يكن الاستاذ لاسوس على حقّ في رأيه ان الفونقس المنبعث من رماده صورة رمزية لخلود الامبراطورية الرومانية ، فلا يمنع هذا ان يكون الاطار بما فيه من الاكباش المجنحة المتقابلة مأخوذ من موضوعات الفنّ الرسمي للملوك الساسانيّين .

ولنا غير ، ما تقدّم ، آثار من القرن الخامس واوائل السادس يظهر فيها ، باوضح جلاء ، تأثير الفنّ الايراني الساساني . منها هذا الاسد الرائع بحمرته القانية تزيد في رونقها الانوار الصفراء والظلال البنفسجية الرمادية[1] . وكأنه منطرح على سجّادة ذات تقاطيع صفراء خافتة ، وحوله طيور متنوّعة الالوان بين الاحمر ، والوردي ، والبنّي . (الرسم ٩)

يظهر مسطّح هذا الرسم مأخوذاً عن سقوف پومپي او دورا . على ان منه كذلك في بلاد الفرس[2] . ومن هنا اخذه فنّانو الاسلام فنمّوه في سارًا خاصّة .

ولنعد الى قسيساء الفونقس . فنرى فيها — كما نرى في جميع القسيساءات ذات الاسلوب الفلوسي ، المتوافرة في القرن الخامس خاصةً ، وكما نرى ايضاً في قطع القسيساء ذات الإطارات المتقابلة ، القوية الشبه بالسجّاد — موضوعات الرسم الشرقي ، بل طريقة الزخرف الشرقي التي تأخذ رسماً واحداً فتكرّره وتصيده الى ما لا نهاية ، حتى تملأ الفراغ كله لا تهمها سعة المساحة او ضيقها . ولا يخفى ما في هذه الطريقة الزخرفية من سهولة[3] . وهي أسّ كل الزخارف في البنايات الاسلامية التي اتسعت وتنوّعت في اساليب لم تبعد عن هذا الأصل

(١ *Antioch on-the-Orontes*, II, p. 189, n° 62.

(٢ Morey, *op. cit.*, p. 42.

(٣ Morey, *op. cit.*, p. 45

الرسم ٩ : رسم الاسد

الموحّد المتكرّر .

وخلاصة هذه العجالة في درس فسيفساء انطاكية تتفق مع ما استنتجه الاستاذ موريه . وهو اننا نشهد ، في القرنين الخامس والسادس ، انتصار الأثر الشرقي ، في انطاكية ، على التقاليد الهيلينية . ولعلّ هذا الميل الى المذهب المسطّح ذي البعدين ، والى الزخرف برسوم الحيوانات او تقاطيع السجّاد ، من عوامل الوراثة القديمة التي تعود بالفنّ الى مظاهره الشرقية .

وقد لوحظ مثل هذا التطوّر ، بعد قليل ، في القرنين السابع والثامن ، في آسية الصغرى ، وفي اليونان ، في ايطالية ، وفي الغرب اللاتيني . ونعرف الآن ان « هذا التطوّر مدين لتأثير سورية وعاصمتها . »[1] .

ولنضف الى ذلك ان سورية ، من دورا الى انطاكية ، كانت تلك البوتقة التي صهرت العناصر الهيلينية والايرانية ، فكوّنت اصول الفنّ البيزنطي ، واصول الفنّ الأوّل في القرون الوسطى .

(١ Morey, *op. cit.*, p. 47

الرسم ١٠ : الاكباش المجنّحة

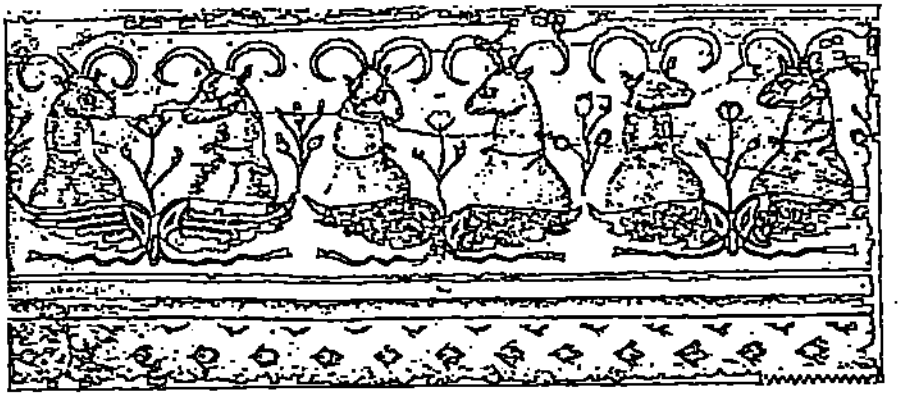

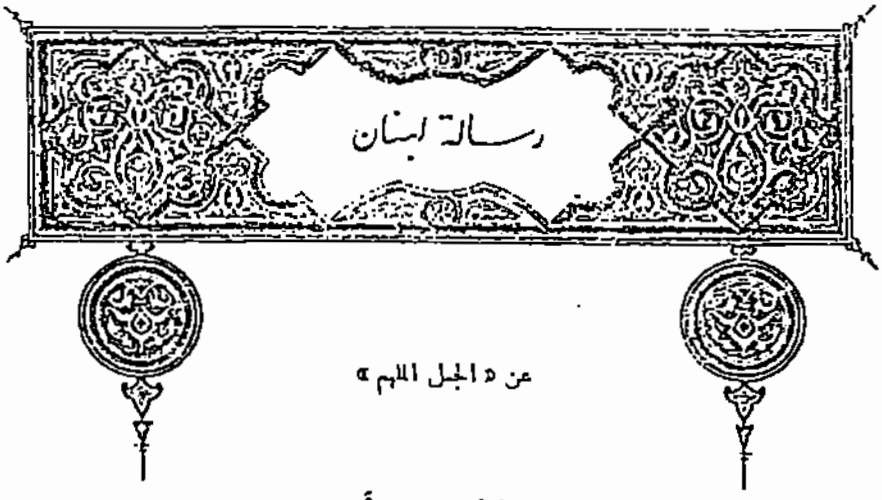

عن « الجبل الملهم »

هَزَزْنا كُرَةَ الأَرضِ ،
وجُبنا ملعبَ الشمسِ ؟
وهذي لغةُ الأمسِ ،
قضت منّا ؟ ولم نقضِ .

شرقُنا عضَّ ، في القديم ، نهودَ الأَرضِ ،
يروي أعلامَنا باللبانِ ؟
وحمدنا ، في ضنة المارد الجبّار ،
وحبَ الآفاقِ والأكوانِ .

وانتهكنا الأسرارَ ، والمُقَدَ البكرَ ،
على مطلع الشموس الدوانق :
ما تَرامى احتضارُنا في الدجى ،
ألا تَرامى لنا ، من الصبح ، بَرقُ ؟

او رضينا بالأجهمِ الحظِّ ، ألّا
هَبَّ ماضٍ لنا دفيقُ الضياء ،
صاخبٌ في عروقنا بالبطولاتِ ،
معيدٌ وثوبَنا في الفضاء .

أمَمُ الأرضِ ، دون عدٍّ ، تناحرنَ
على احقرِ المعادنِ ، قِدْما ،
فوق شبرٍ لنا من الأرضِ تُرْبٍ ،
كان ، في فقره ، عليهنَّ سُؤْما .

ورأينا الشعوبَ في أثرِ الأجيالِ
تجري ، ولم تبدّل سماء ؛
ولبثنا في اللازوردِ ، على الشمّ ،
كبارًا في عقلنا ، حكماء .

كم رأينا ، على المدى ، من مجوسٍ ،
وملوكٍ ، ومن جنودٍ غزاةٍ !
شعراءٌ ، وانبياءٌ ، وارباب
جثوا ، دون صخرنا ، في صلاةِ !

وتظلّ الأمواه من نَهَر الكلب ،
كبارًا ، فوق الاهانة ، قدرا !
كَرَكَلّا ، يا رَعْمَسِيسُ ، ويا بَرقوقُ ،
انتم ، في الشطرِ ، اوهامُ ذكرى !

لا بـلادٌ في الأرضِ أضيقُ تربًا ،
دون ابنائهـا ، وارحبُ أفقًا !
هاجتها الدنيـا نـورًا باقصى
عددٍ ؛ فالتقت أعزَّ وأبقى !

ما غَزتنا ، ونحنُ كنزٌ دفينٌ ،
فوق قدر الظُبى ، وفوقَ الحِرابِ ؛
هـو وادٍ ومَنجمٌ علويٌّ ،
هو نارٌ طيَّ الجباهِ الرحابِ !

قِـطُنا ، نحنُ ، صَبرُنا ، منذ كنّا ،
منذ كان الزمان طِفلَ سريرِ ؛
وعتاداتُنا العِبـادةُ والفكرُ ،
وأنَّ الباقي هبـاءُ قشورِ !

أنَّ بغضَ القريب فقرٌ ،
وأنَّ الحبَّ ريُّ الضلوع بالنعماء ،
أنَّ لذّاتهِ على قدرهِ ؛ أنَّ
جُذى الحبِّ فوقَ ضمِّ النساء ؛

أنه يمنح البريّة في العرس
سخيًّا ، وأن حبَّ العدوّ ،
قدرَما يُبغضُ ، انتصارٌ على الشرّ ،
وشقُّ الصباح من جهم جوّ !

(عطور النقل)

سعيد عقل

المَساجِد والمَشاعِر

في العصر الجاهلي

من آثار الاب لامنس

نشرنا في السنتين السابقتين للمشرق ، ابحاثاً من آثار الاب لامنس في « الحجارة المؤلهة وعبادتها عند العرب الجاهليين » . وها اننا نتبعها الآن بسلسلة من الابحاث جليلة في مساجد الجاهليين ومشاعرهم ، استند فيها المؤلف خاصة الى القرآن وهو اثبت ما لدينا من نص عن ذاك العصر السحيق ، واوضحه دلالةً على مظاهر الشرك التي كافحها .

١

في اللغة الدينية الجديدة التي ابتكرها « النبيّ الأُمّيّ »[1] ، عدة مفردات اتخذها من البيئة الجاهلية ، وكانت تدلّ على آثار ومؤسسات دينية راقية الى عهد الشرك . فعمل الاسلام على تنقيتها من مدلولاتها القديمة ، كما عملت هي على اثالة الإسلام صبغةً شخصية وطنية خاصة ميّزته عن الديانتين الموحّدتين الكتابيّتين .

ولنرَ اولاً هل يجوز لنا ان نعدّ ، بين هذه المفردات القديمة ، كلمة « مسجد »[2] ، باحثين فيها قبل التطوّر المتتابع الذي انتهى الى انشاء المسجد الجامع في الاسلام . ويجب القول اننا ، في هذه المحاولات ، نتّخذ الطريقة المباشرة ، لا الطريقة الرجعية ، التي يفضلها العلماء عادةً : اذ تنتقل بهم على

---

١) لا إخال احداً من العلماء يشكّ ، في عصرنا ، في معنى « الأُمّيّ » ودلالته على انه منسوب الى الأمّة ، وان النبي كان من « الأمم » الاجنبية ، في نظر اليهود ، الشعب المختار : وليس منسوباً الى الامية بمعنى الجهل بالقراءة والكتابة . وهو معنى عصري لا يؤيده شيء في النصوص القديمة .

٢) هذه المحاولة في تحقيق معنى « المسجد » الجاهلي قُدّمت الى مؤتمر المستشرقين المنعقد في أثينة سنة ١٩١٢ . اما القسم الثاني من البحث الذي يتناول اواخر العصر الجاهلي فقد أُلّف زمن الحرب الكبرى ، وأُنهي سنة ١٩٢٦ .

مهل ، من المعروف الى غير المعروف ، راجعة عصرًا فعصرًا حتى تصل بهم الى اصل الشيء الذي يدرسون. على انها كثيرًا ما تقود الى الوهم والضلال إذ تسهل عليهم الخلط بين زمن وزمن ، واذا بهم ينسبون مدلولاتهم الحاضرة الى عصر سابق. وهي ، في الموضوع الذي يهمنا خاصة ، كثيرًا ما عملت على نشر الاعتقاد الخاطىء بان المسجد الجامع ، كما نراه اليوم في الجماعة الاسلامية ، يرقى الى عهد النبي . بل انها لا تزال توهم عددًا من المستشرقين فيؤمنون بصحة هذا الأمر ، من اولئك الذين لم يجدّدوا مصادر ابحاثهم منذ عهد فون كريمر وسپرنجر .

ولا يخفى ان هناك مادةً لكتاب كامل في نشأة المفردات الدينية وتطوّرها في لغة القرآن[1] . وما اخذت هذه اللغة عن المفردات السابقة المعروفة في تعابير اصحاب « الكتاب » الدينية[2] . ذلك ان النبيّ ، وقد تأكّد له انه يعمل مع ارباب الكتاب على مكافحة الشرك ، لم يتراجع عن اتخاذ بعض مفرداتهم ، مقاوماً بجهد جبّار ، وبنجاح باهر احياناً ، تلك الصعوبات في « ايجاد مفردات خاصة للتعبير عن افكار ومدلولات اجنبية عن لغته الوطنية ، وعن بلده. »[3] وهذا كان شأنه في ما خصّ قصص الانبياء و« اساطير الأوّلين » . فكان فضله عظيماً في خلق انشاء ديني غير معروف قبله في بلاد العرب . ولم تكن اسجاع الكهّان — تلك التي اتّهمه بتقليدها معاصروه من المشركين[4] — لتقوى على احتمال المقابلة بينها وبين هذا الانشاء العربي المبين.[5] بيد انّ النبي عرف الاسجاع معرفة المطّلع الخبير فردّ التهمة بقوّة ، ونسب غيره الى تقليد الكهّان فقال عن

---

١) قابل بعضها في : Noeldeke, *Neue Beitr. zur semit. Sprachwissenschft.* 1-30 ; J. Horovitz, *Jewish Proper Names and Derivatives in the Koran* [in *Hebrew Union College Annual XXI*] 145-227 ; Rich. Bell, *The origin of Islam in its Christian Environment* Londres, 1926, p. 51...

٢) ولنذكر منها : الحنيف ، والقرآن . . . واطلب في اصل هذه اللفظة ، ملاحظات قيّمة في R. Bell, *op. cit.*, 118, 121 etc.

٣) Horovitz, *op. cit.*, 184

٤) اطلب القرآن ٥٢ [الطور] ٣٠ ؛ ٦٩ [الحاقّة] ٤٢

٥) القرآن ١٦ [النحل] ١٠٥ ؛ ١٨ [الكهف] ١

بعض زائريه ، من الآخذين بالاسجاع المتوازنة ، والمراجعات المتقابلة : « هذا من اخوان الكهان . » قال ذلك « من اجل سجعه الذي سجع ! »[1]

واذا شئنا ان نفتش عن رأي النبيّ الأصيل في « المسجد » و« المساجد » وما كانت تعنيه هذه اللفظة ، وعن دور العبادة في المجتمع الاسلامي الاول ، فلا يجوز لنا ان نأخذ بما تألف حول ذلك من معلومات واشارات وآراء متأخرة عن زمن النبي . انما مصدرنا الثابت هو القرآن الذي لا يُشكّ في صحته وتاريخيته . نستند اذًا الى القرآن ، صارفين النظر عن مجموعات الحديث التي قد يكون فيها الضعيف والمضطرب والموضوع .

۞

نجد في القرآن كلمات قد تأتي منعزلة مفردة من امثال « خاتم » و« ماعون »[2] . وليس منها لفظة « مسجد » التي وردت ٢٨ مرّة في القرآن . على ان هذه الكثرة لا تأتي بالفائدة المطلوبة في تحديد اللفظة لما فيها من مراجعات القوالب نفسها ، دون ان يأتي التعبير التالي بما يزيد عما اورده الأول . ولكنّنا نضحي بنصف هذه المراجعات في سبيل شيء من التحديد في وصف تلك « المساجد » المذكورة ، او في سبيل الاشارة ، وان سطحية ، الى شيء من شكلها وهيئتها ، وطرق العبادة فيها . ولكن لا سبيل الى ذلك . ولا شك ان تأثير الانشاء الشفهي عمل على ترك هذه اللفظة غامضةً ، كما عمل على ذلك كونُ السامعين يعرفون ما تمثله ، ويفهمون ما كانت ترمي اليه . واذًا فهي لفظة معروفة لديهم تشير الى مدلول معهود . والّا لما أحجم القرآن عن تحديدها والاشارة الى الغاية منها . فلنحفظ هذا لحينه .

ولنتقدم الى القول ان نصف هذه الاشارات الثاني والعشرين تردّد ، دون

---

١) مسلم : الصحيح ٢ : ٤٠ ؛ ابن حنبل : المسند ٤ : ٩٤-٩٥ ، ٩٨ ؛ قابل بما في ابي داود : السنن ٢ : ١٦٢

٢) القرآن ٣٣ [الاحزاب] ٤٠ ؛ ١٠٧ [الماعون] ٧ . وليس معنى « الخاتم » آخر النبيين ، كما قد نرى في بعض الشروح ، بل « مصدّق لما قبله من الانبياء » وهو الشرح المستخرج من مضمون النص .

اي تنوّع في التعبير ، القالب نفسه وهو « المسجد الحرام ». أما معنى هذا التعبير في لغة القرآن ، فقد يدلّ على بناء الكعبة فقط ، كما قد يدلّ على الكعبة مع « فنائها » القريب ، اي جوارها ، وقد يدلّ على حرم مكة كلّها[1] ، بل على كل ما تقدّم معاً . واما الشروح المختلفة فيقوم بتعيينها ومناقشتها ، بعد هذا العصر ، جمهور الشرّاح والمفسّرين ، فيميّزون في مكة « مسجد الكعبة ».[2] ويكتفي اكثرهم بالقول ان « الحرم كلّه مسجد. »[3]

وكي نعمل على الخروج من هذه المراجعات التي قد تحتمل الشروح المختلفة ، نبدأ بالنظر في التعابير القرآنية التي وردت فيها هذه اللفظة بصيغة الجمع ، فجاءت « مساجد »، فنقابلها بمضمون نصوصها ، وقد تخرج من الغموض الذي تولّده تعابير « مسجد الحرام » المماثلة المتعدّدة .

ولا يأسف المستشرقون على الوقت الطويل يُنفق في درس بعض التعابير القرآنية من تلك التي يتردّد في الجزم بمعناها علماء التفسير التقليدي . والواقع ان استعمال الجمع في لفظ « المساجد » لمّا يُحيّر هؤلاء العلماء . حتى ان بعضهم لم يتردّد في وضع « مسجد » بدل « مساجد »[4]. ولجأ غيرهم الى لهجة عامية تعبّر ، في زعمهم ، عن « المسجد » المفرد بصيغة الجمع ، يؤيّدون ذلك بالاستناد الى بدوي مجهول تناولوه من الضاربين في تلك الصحاري الفسيحة فقالوا : « قد حُكي سماعاً عن بعض العرب مساجد في واحد المساجد. »[5] ولا يخفى التعسّل والتحكّم في مثل هذه التفاسير . بيد انهم كلهم يجمعون ، في النتيجة ، على ان المسجد المقصود في الآيات المذكورة جميعها انما هو الكعبة . فلنستفد من هذا الإجماع القريب ،

---

١) كما في القرآن ٢٢ [الحجّ] ٢٦٫٢٥

٢) مسلم : الكتاب المذكور ١ : ٥٢١٫٥٢٢ ؛ ابن الأثير : اسد الغابة ٣ : ٣٨٣ ، ٤ : ٥٧ ؛ النسائي : السنن (طبعة مصر) ١ : ١١٢ ، ١١٧ ، ٣ : ٢٤

٣) الازرقي (في *Chroniken der Stadt Mekka*, edi. Wustenfeld) ١ : ٣٠١ ؛ الاغاني ١٤ : ١٥٥ ؛ البلاذري : فتوح البلدان ٤٣ ؛ القرآن ٢ [البقرة] ١٢٩ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٨٧ ؛ Snouck Hurgronje, *Het mekkaansche Feest* I, 38

٤) الفخر الرازي . تفسيره ٤ : ٦٠١ ؛ وكذلك تفسير البيضاوي (Fleischer) ١ : ٣٨٠

٥) تفسير الطبري ١ : ٢٧٥

ولنتابع محاولتنا في فهم المقصود « بالمساجد » بصيغة الجمع .

٣

لم ينفرد التفسير الرسمي بالعمل على هذا الإجماع في توحيد « المسجد ». بل هناك التاريخ الرسمي الناطق بلسان « السيرة » ومجموعات « الصحيح » و« السنن » و« المسند » ، في رواياتها المتنوّعة ، وكلّها تفرض ، ضمنيًا على الاقل ، انه لم يكن في بلاد العرب جميعها ، زمن بعثة النبي ، الّا مسجد واحد .

في بطن تلك البطحاء المتكوّنة بانخفاض وادي مكة ، وسط ساحة ضيّقة ، تضغط حدودها من كل جهة البنايات المجاورة ،[1] وتزدحم فيها الحجارة المؤلّهة منصوبة او ملقاة — ولنذكر منها مقام ابراهيم — كان يرتفع بناء مكعّب الشكل هو الكعبة . وكان هذا البناء ، بما يتصل به من حائط الحِجْر[2] الملتفّ على شكل نصف دائرة ، ومن بئر زمزم ، يكوّن « المسجد » على الاطلاق ، « البيت العتيق » ، « بيت الله ». فاذا كان ذلك كذلك فما القصد اذًا من لفظ « المساجد » بصيغة الجمع ؟ وكيف التوفيق بين النظرية السنّية التقليدية في المسجد الوحيد ، وتعدّد المساجد المستنتَج من الآيات القرآنية ؟

ولنتنبه خاصّة للآية ٤١ من السورة ٢٢ وهي سورة « الحجّ » :

« الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حقّ الّا ان يقولوا ربّنا اللهُ . ولولا دفعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعض لَهُدّمت صوامعُ وبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يُذكَر فيها اسمُ الله كثيرًا . ولينصُرَنّ اللهُ من ينصرُه ان الله لَقويٌّ عزيز »

ـ وواضحٌ ان هذا النصّ يشير الى « المساجد » المعروفة على عهد النبي ، لا الى مساجد المستقبل ، كما يرمي اليه ارباب التفسير من اولئك الذين لا يتردّدون

---

١) ابن الاثير : النهاية ٣ : ١٣ ؛ قطب الدين (في Wüstenfeld, *Chroniken*) ٣ : ٧٣ ؛ Snouck Hurgronje, *Mekka*, I, 11-12 ؛ واطلب كتابنا *La Mecque à la veille de l'hégire*, 87...

٢) ويغلب ان يكون هذا « الحِجْر » بنية « مسجد » مستقلّ عن الكعبة ، راجع الاصطخري : جغرافيته (de Goeje) ١٦ . ويبلغ ارتفاعه مترًا ونصف متر ؛ اطلب Léon Roches, *Dix ans à travers l'Islam*, 297-298

في شرح ولا تأويل . ولا يخفى ان وضع « المساجد » بجانب الصوامع والبيع و[بيوت] الصلوات التي يُذكر فيها اسم الله ، يُستدلّ منه تعديد المساجد اولاً ، وثانياً انها من البنايات التي يُمكن ان « تُهدّم » كما ورد في الآية نفسها . فلنحفظ هذا لحينه . ولنحذر من المبالغة في الاستنتاج . فان الآيات القرآنية لا تفيدنا شيئاً عن الفرق بين المترادفات الدالّة على المعابد[1] ، كما انها لا تفيدنا شيئاً كذلك في هندسة تلك المعابد واشكال بنائها . وقد يسأل الباحث : ولِمَ لم تذكر هذه الآيات — واكثرها ، ان لم نقل كلّها ، من العهد المدني — بين المعابد المتعدّدة « كنائس » اليهود .[2]

وفي آية اخرى يشير القرآن الى ظلم غير المؤمنين[3] « ممن منع مساجدَ الله ان يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها »[4] وهذه هي المرة الثانية التي يرد فيها لفظ التهديم او التخريب بالنسبة الى المساجد . فهل يجوز ان نرى فيها غير التهديم المادّي بتقويض بناء مادّي ؟

ثم أليست الآية « ان المساجدَ لله »[5] تشير الاشارة الصريحة الى تعدّد المساجد ، خلافاً لما تفرضه نظرية المسجد الوحيد ؟ وسنعود الى درسها . واذا كان المقصود بالآيات المتقدمة مساجد المستقبل ، تلك التي سيقوم الاسلام ببنائها بعد عهد نبيّه — كما يعمل على تأويلها اكثر الشرّاح ، حتى اوقرهم تنلنلاً ونقاشاً

---

١) فلا يمكننا مثلاً ان نميّز ، بواسطة اسماء القرآن ، بين « الصوامع » و« البيع » ؛ قابل بما في Fraenkel, *Aramaeische Fremdw.*, 274 وقد تدلّ لفظة « بيعة » على كنيسة في الاغاني ١٧ : ١٩ ، انما هذه الدلالة صعبة الاقرار . وترجم Grimme, *Zeitschr. fur Assyriol.*, XXVI, 161 ان اصل اشتقاقها من لغة الحبش . اما الترادف بين « الصومعة » و« الدير » فلا مشاحة فيه ؛ راجع مسلم : الصحيح ٢ : ٢٢٧ ؛ السيوطي : الإتقان ١ : ١٤٠ وفيه ان الصلاة سمّاها بالعبرانية « بيت الصلاة » . اما في تفسير الطبري ١٦ : ١١٢ فتدلّ « الصوامع » على الديورة و« البيع » على الكنائس .

٢) لا نرى اللفظة « كنيسة » او « كنيس » في القرآن . اوَ تكون داخلة ضمناً في « الصلوات » ؟

٣) وقد يُقصد بهم الروم البيزنطيون (؟) كما في البيضاوي (Fleischer) ١ : ٨٠

٤) القرآن ٢ [البقرة] ٨-١

٥) القرآن ٧٢ [الجنّ] ١٨

كالجاحظ[1] — فما القصد من تهديد مشركي قريش بأنهم ما كان لهم ان يدخلوا الّا خائفين[2] ، معابدَ لا وجود لها اذ ذاك ؟ وما الغاية من منعهم ان يقيموا فيها الشعائر الدينية ولا سيما شعائر الحجّ ؟ وهو المعنى الصحيح للتعبير : « يَعْمُرُ مساجدَ الله » في الآية : « وما كان للمشركين ان يَعْمُروا مساجدَ الله شاهدين على أنفسهم بالكفر اولئك حبطت اعمالهم وفي النار هم خالدون. انما يعمُر مساجدَ الله من آمن بالله واليوم الآخر واقام الصلوة وآتى الزكوة ولم يخشَ الّا الله فعسى اولئك ان يكونوا من المهتدين. »[3] وواضح ان المقصود العُمرة المكّيّة ، وبالتالي الحجّ ، الذي انتهى النبي بتحريمه على المشركين. وقد بيّنتُ ، في بحث سابق[4] ، ان العُمرة الجاهلية كانت تقوم بالطواف والسعي الى المعابد القديمة المنتشرة في ارض الحرم. والواقع ان المعابد الاسلامية في هذه المنطقة متأخرة كلها عن وفاة النبي. واذًا فان « مساجد الله » الممنوع على المشركين ان « يعمروها » لا يمكن ان تكون المعابد المتأخرة ، بل انها تدلّ على معابد جاهلية كانت معروفة زمن النبي. واذًا فقد لا نخطئ اذا اطلقنا على مكة الجاهلية ذاك اللقب الذي تطلقه الذكريات الدينية القديمة على أماكن المعابد ، فسمّيناها « ذات المساجد »[5] ، كما لُقّب وادي ثقيف « ذات الانداد »[6] لكثرة ما كان فيه من الحجارة المعبودة. وهو لقب قد لا يبعد في المعنى عن اللقب الاول .

ثم ان الغاية من الردّ على المشركين لا نراها تتجاوز حاضر المناقشة بين النبي واعدائه من مشركي قريش. والقرآن يمنعهم ان « يعمروا مساجد الله » فيحتّم

---

١) قابل بما في الطبري : التفسير ١ : ٢٧٧. وقد تنال الاشارة النصارى الذين يضطربون خوفًا من ان يعاقبوا اذا دخلوا المسجد مسارقةً ! .

٢) القرآن ٢ [البقرة] ١٠٨ .

٣) القرآن ٩ [التوبة] ١٧–١٨

٤) الحجارة المؤلّهة وعبادتها عند العرب الجاهليين ، في المشرق ٣٧ [١٩٣٩] ٨٢–٨٦

٥) ورد اللقب في شعر عبيد ابن الأبرص : الديوان (Lyall) ٨٢ : ٨ ، ولكن لا يمكن تبيين موقعه .

٦) راجع كتابنا *Ṭāif*, 28-32

الكفرهم ، كي يعمُر تلك المساجد النبيُّ واتباعُه ممن «آمن بالله واليوم الآخر واقام الصلوة وآتى الزكوة.» والنبيّ لا يكتفي بالكعبة وحدها ، بل انه يطالب بحقّه في سائر المساجد المنتشرة في ارض الحرم. أو ليست المساجد كلها لله ؟ واذًا فمن حقّ رسول الله ان يُشرف عليها ، ويدبّرها ، وينظّم سدانتها ، ويراقب او يصلح «عمارة المسجد الحرام»[1] ، اي القيام بالعُمرة في مكة ، وفقاً للمنهاج المسنون في سورة التوبة او البراءة. هذا «أذانٌ من الله ورسوله !»[2]

واذا احتجّ مشركو قريش بحقّهم في السقاية من بئر زمزم[3] ، وما الى ذلك من خصائص الأسر القرشية النبيلة ، اجابهم القرآن بان تلك الحقوق القديمة لا تقوم امام حقّ الله ، وحقّ المؤمنين بالله ، والمجاهدين في سبيله : «أجعلتم سقاية الحجّ وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله ؟ لا يستوون عند الله ، والله لا يهدي القوم الظالمين.»[4] مضى عهد تلك الخصائص والشعائر . ولم يبقَ الّا نقضها بمؤسسات جديدة ، او ادخالها مُكيَّفة في النظام التوحيدي الجديد. وهو ما يقوم به النبيّ شيئاً فشيئاً ، باسطاً حقّه ، على جميع محطّات العُمرة القديمة من مساجد العاصمة الدينية وطريق الحجّ السنوي. حتى اذا خلص له الحرم المكي بكامله ، استقلّ المسلمون بالمساجد دون المشركين من قريش وغيرها ، «اولئك ما كان لهم ان يدخلوها الّا خائفين.»[5]

الى هذه المساجد القرشية الاصيلة تُشير الآية ، لا الى ما سيُحدثه المسلمون

---

١) القرآن ٩ [التوبة] ١٩ – ومرعان ما نسي القوم معنى العمارة ، حتى قال بعض الشرّاح انها تقوم بتحريم كل كلمة فاحشة او بذيئة في المسجد ، اطلب اسد الغابة ٣ : ١٠٢ . وكذلك نجد ان معنى العُمرة ناله الكثير من الإبهام. راجع Snouck Hurgronje, *Mekk. Feast*, 78 وقابل بما في ابن هشام : السيرة ٧٤٠ : ٢ «العُمرة مشتقة من عمارة المسجد.»

٢) القرآن ٩ [التوبة] ٣ . . .

٣) راجع في سقاية الحاشميين ابياتاً منسوبة للعباس بن مرداس في الاغاني ١٦ : ٦٥ ، وليس ما يؤيد صحتها ، قابل بما في Gaudefroy-Demombynes, *Le pélerinage de la Mecke*, 87

٤) القرآن ٩ [التوبة] ١٩

٥) القرآن ٢ [البقرة] ١٠٨

من جوامع في المستقبل . ولا يخفى انه لم يكن من همّ مشركي قريش ان يدخلوا المساجد الاسلامية المقبلة ، انما كانوا ينازعون الجماعة الاسلامية الناشئة في ملكية المساجد الجاهلية القديمة[1] .

۞

ولنعد الى المفسرين وعلماء السنة ، فنرى ان « المساجد » ، بصيغة الجمع ، كثيرًا ما حيّرتهم ، وعاكستهم في تأييد زعمهم بوحدة المسجد اي الكعبة ؛ فدفعتهم الى استخراج الشروح والتأويل الغريبة . حتى ان الإمام احمد بن حنبل لا يحجم عن القول بكل جدّ ورزانة ان المقصود « بالمساجد » اعضاء الجسد السبعة التي تتعاون في السجود .[2] ولا يقلّ جدًّا عنه اولئك الذين يصرّحون ان الجمع يُقصد به الأرض كلها . هذا اذا لم يعتبروا ان الجمع يقصد به الكعبة لأنها قِبلة المساجد . ويقترح غيرهم ان المقصود « شيء من المساجد » ثم يعيدنا الى مسجد مكة ، لأنّ من يزوره فكأنه زار « المساجد » جميعها .[3]

كل هذه الشروح ، بما فيها من آثار التكلّف والتداعي ، ومظاهر الرزانة الجادّة ، تثير دعابة الجاحظ[4] ، فيشترك في التفسير عابثًا ، على عادته . الّا انه يتستّر وراء ابي اسحق[5] ويقول عن لسانه : « لا تسترسلوا الى كثير من المفسرين ،

---

١) وقد يكون المنع رمى الى جلاء غير القرشيين . قابل بما في القرآن ٩ [التوبة] ٢٨ . لأن المشركين لم يُطردوا من مكة بعد الفتح . بل ظلّ كثير من القرشيين على شركهم في مكة حتى وفاة النبي فعملوا على هياج الفتنة .

٢) ابن حنبل : المسند ١ : ٢٥٥ ؛ قابل بابن سعد : الطبقات ٦ : ٢١١ ؛ تاج العروس ٢ : ٢٧١

٣) راجع البيضاوي : الكتاب المذكور ١ : ٢٦٣

٤) كتاب الحيوان ١ : ١٦٨ ؛ راجع البلاذري : الانساب ٥٨٣ ، فقرة وفيه عن ابن ملجم قاتل علي : « كان . . . مسجدًا يبتون ان في وجهه اثر السجود . » قابل بما في اسد الغابة ٤ : ٢٨ – اما بشأن آراء الجاحظ الفلسفية فيمكن الرجوع الى Horten, *Die philos. Systeme der spekulat. Theologie in Islam*, 320 etc.

٥) راجع Schwally, Ibn Saad, *Tabuqāt*, II, introduction, p. 14 : Ahmad Yoūsof, , *Le livre de l'impôt foncier*, trad. d'E. Fagnan, p. 12. n. 9 الذهبي : ميزان الاعتدال (طبعة مصر) ٣ : ٢٤١

وان نصبوا انفسهم للامامة وأجابوا في كل مسألة . فان كثيرًا منهم يقول بغير رواية على غير اساس. وكلما كان المفسّر اغرب عندهم كان احبّ اليهم. وليكن عندكم عكرمة، والكلبي، والسدّي ، والضحاك، ومقاتل بن سليمان، وابو بكر الاصمّ في سبيل واحدة. فكيف اثق بتفسير واسكن الى صوابهم وقد قالوا في قوله ، عزّ وجلّ :« وان المساجد لله » ان الله ، عزّ وجلّ ، لم يعنِ بهذا الكلام مساجدنا التي نصلّي فيها ، بل انما عنى الجباه وكل ما سجد الناس عليه من يد ورجل وجبهة وانف وثفنة.»[1]

ها هو الجاحظ يوقفنا على حيرة التفسير الرسمي التقليدي امام « المساجد » بصيغة الجمع. ولكنه ، على ما فيه من ظرف وفكاهة ، لا يتقدّم بنا في سبيل الحلّ المعقول .

---

١) قابل بما في صحيح مسلم ١ : ١٨٨-١٨٩ : « أمرت ان اسجد على سبعة أعظم » (حديث) ؛ ابن الاثير : النهاية ١ : ٣٤ ؛ النسائي : السنن ١ : ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ؛ البخاري : الصحيح (طبعة استانبول) ١ : ١٦٧ ؛ ١٦٨ ، ١٦٩ : الدارمي : السنن ١٧٤ ، وفيها تعداد الاعظم السبعة التي يُسجد عليها . . .

ذكرى النفي الى مالطة

١٨٤٠–١٩٤٠

بقلم نجيب الدحداح

« وفي الصباح توجّه ، ترافقه اسرته وحاشيةٌ كثيرة ، الى صيدا . فوصلها في الحادي عشر ووضع نفسه تحت تصرف الكابيتان باركلي ، قائد الموقع . وفي اليوم التالي نُقل الامير وجميع مرافقيه ، عن امر الاميرال ستوپفورد ، على ظهر الباخرة الانكليزية « سيكلوپ » الى بيروت . ثم سافرت الباخرة ومضى الامير بشير يقيم في حمى الشعب البريطاني »[1]

هكذا نقل صحافي فرنسي ، منذ قرن كامل ، خبر انتقال الامير بشير الكبير الى مالطه في ١١–١٨ تشرين الاول سنة ١٨٤٠ . وقد جاء نفي الامير على اثر ثورة اهلية امدّها ممثلو الدول الاوروبية العظمى بمساعدات جمة ، فكان الحادث سبباً لحوادث اخرى هامة كان لها التأثير الاكيد في توجيه مصيرنا.

امّا نحن فنريد ان نستفيد من مرور مئة سنة على نفي الامير لنجعله محوراً لكلامنا في مقدماته ، وظروفه ، ونتائجه ، وكلها حافلة بما يفسّر احوال لبنان الى يومنا هذا ، ويجعلنا نزداد ثقةً بمستقبله.

المقدمات

قلنا ان نفي الامير جاء على اثر ثورة اهلية ؛ وسنرى اسبابها ، وحوادثها ومميزاتها . ومن كلامنا في حوادثها يتبيّن لنا دور السياسة الدولية فيها.

امّا الاسباب ، فتعود اصلاً الى اتفاق الامير بشير ومحمد علي ، وتصرف الفاتح المصري مع اللبنانيين . فقد ظلّ لبنان ، في مقاطعاته الاصلية على الاقل ،

---

(١) Baptistin Poujoulat, *Voyage dans l'Asie Mineure*. Paris, 1841, pp. 561-595
وفي الجملة الاخيرة تذكير بعبارة نابوليون عندما استسلم للحكومة البريطانية.

مستقلاً استقلالاً داخلياً مدة العهد العثماني ، يتولى الامر فيه امراء منبثقون عن انتخابات يقوم بها اصحاب الاقطاع . وكان السلطان العثماني في نظر الحكام اللبنانيين ، على نحو ما كان الامبراطور البيزنطي في نظر ملوك اوروبة الغربية ، صاحب سيادة اسمية يدفعون له الاموال للحصول على خلع تولي اصحابها صفة شرعية للحكم . ولم يكن الخلاف الدائم بين امرائنا ووزراء الدول العثمانية ليدور الّا على امرَين: مبلغ الاموال المترتب دفعها سنوياً للباب العالي ، وحدود لبنان الطبيعية . وكثيراً ما كان يغتصب الولاة المجاورون سهولنا الخصبة ومدننا البحرية الكبرى. ولمّا تحالف الامير بشير سرّاً مع محمد علي ، في سنة ١٨٢٣ ، وعد الاخير بأن يكافئ اللبنانيين اذا انضموا الى جيوشه ، بإعادة مدنهم اليهم وبتعزيز استقلالهم . وكان من الطبيعي ان يأمل جدودنا ايضاً ان تُدبَّر قضية الضرائب لخير مصلحتهم.

وفي ٢ تشرين الثاني سنة ١٨٣١ هاجم ابراهيم باشا ، ابن محمد علي ، فلسطين. فتريّث الامير قليلاً في البدء، ولم ينضم الى الفاتح المصري الّا بعد سقوط عكا ، في حزيران ١٨٣٢ ، وقد عرفها في عهد الجزار سبياً لعثرة بونابرت . فاشترك اللبنانيون بعدئذٍ بفتح دمشق وسائر الاراضي السورية. وعلى اثر معاهدة كوتاهية ، في ٥ ايار ١٨٣٣ ، انصرف ابراهيم باشا الى تنظيم « الاقطار الشامية ». فقامت في وجهه العراقيل والثورات في فلسطين (نيسان-ايلول ١٨٣٤) ، وبلاد النصيرية (تشرين الاول - كانون الاول ١٨٣٤)، والاضطرابات في حلب وانطاكية الخ. وكان في قمع اكثرها فضل للجند اللبناني. فكيف كانت المكافأة وكيف حققت الآمال ؟

لم يعبأ ابراهيم باشا بكيان لبنان الخاص عندما وضع الضرائب على الاقطار التي اعتُرف له بالسيادة عليها في معاهدة كوتاهية : فاحتُكرت منتوجات الارض والبهائم ، وسُخرت الافراد والجماعات ، واضطر كل فرد بلغ السنة الرابعة عشرة من عمره ان يدفع رسماً جديداً مشهوراً باسم « الفرده ». وقد ضجّت جميع البلدان التي حكمها ابراهيم باشا من هذه الضريبة الاخيرة. فقال شاهد عيان ان لبنان « يدفع في العهد المصري ما يزيد بأربع عشرة مرة على الضرائب التي كان

يدفعها في عهد السلطان (العثماني) ».[1]

ثم اردف متكلماً عن الاهلين: « لقد سلبهم الاستبداد حقائدهم المصفرّة على رؤوس جبالهم ، وورقة التوت المنصوب في وديانهم ، والزيتون ، والتين والجوز التي كانت ثروتهم في الماضي . ان الاستبداد يمسك بهم ، ويجرّدهم ، ويدعهم عراة مثل صخور لبنان التي لم يعد ينبت عليها زهرة ، ولا خضرة ، هو يبتلعهم كما يبتلع نسر جبالهم لبّ الارز . »[2]

وما سهل هذا الاستبداد الّا على اثر تجريد ابناء لبنان من سلاحهم . وقد عمد ابراهيم باشا الى هذا التجريد بحيلة كانت اصلاً لشرور عدة توالت على اقوامنا ، اذ تظاهر بأن التدبير لا يتناول الّا الدروز . فاضطرّ هؤلاء للتسليم . وبعد ذلك أعيدت الكرة على النصارى فسلّموا بدورهم سلاحهم (١٨٣٥) . هي المكيدة الاولى في التفريق بين اللبنانيين، وكان نجاحها تحريضاً على تكرارها .

وفي تشرين الثاني سنة ١٨٣٧ شبّت نار الفتنة في حوران ، فدعا الامير بشير رعاياه النصارى لنجدة الجيش المصري، فلبّوا الدعوة، ساقطين في حبال المكيدة الثانية لرضاهم بمقاتلة دروز حوران ابناء دروز لبنان . ولكنّ عاقبة ذاك التدخل كانت وخيمة على القائد المصري: فقد ابى اللبنانيون ، عند انتهاء الفتنة المذكورة ، تسليم سلاحهم ، بل استفادوا من البنادق التي أعطيت لهم للقيام بثورة كانت اولى الضربات القاضية على فتوحات محمد علي .

— ولا يفتنا ان نقول ، قبل الحديث في حوادث الثورة وميزاتها ، ان شيئاً من عهود ابراهيم باشا بشأن مطالب جدودنا الوطنية لم يحقق . فان بيروت وصيدا وصور ، بعد ان وُضعت ، في ايلول ١٨٣٢ ، تحت سلطة الامير اللبناني ، أعيدت الى الحكم المصري المباشر بعد معاهدة كوتاهية —

ولما رأى محمد علي اجماع الدول الاوربية الكبرى (ما عدا فرنسة) على مساعدة الدولة العثمانية ، اخذ بتحصين المرافئ الخاضعة لسيطرته وبطلب الجنود من الاراضي المحتلة . فأمر اولاً بتجريد اللبنانيين من سلاحهم ، واكثر

(١ B. Poujoulat, *op. cit.*, p. 561-595

(٢ Poujoulat, *op. cit.*, pp. 330-352

من الاخطاء السياسية فطالبهم ايضاً بالضريبة المذكورة اعلاه « الفرده » اتدفع سلفاً عن سبع سنوات . فضجت البلاد بالناقمين يحرّضهم رسل الدول الاجنبية ، وجرى اجتماع تمهيدي في دير القمر في ٢٧ ايار ١٨٤٠، وُجهت على اثره دعوة للعصيان الى جميع المقاطعات اللبنانية ومما جاء في تلك الدعوة: « . . . لزم اننا اظهرنا العصاوة بعد الاتكال على الله واعتمدنا على محاربة هذه الغدارة وتقديم الطاعة لسعادة افندينا الامير المعظم . . . نرغب بان تكونوا كما نحن متيقظين سهرانين (سهرانين ؟) واعين لكلما يجدّ نواحي بيروت وجهة الشمالية وكلما جد عليكم شي عرفونا حالاً صحبة مخصوص وبحوله تعالى انتم الظافرون ولا يلزم نحشكم على التيقظ كون هذا صالح عايده للجميع »[1] وكان اول عمل قام به الثوار اللبنانيون ما ذكر في هذه الدعوة عن توجه فريق منهم نحو صيدا حيث كان يستعدّ سليمان باشا ، احد قواد ابراهيم باشا ، لمهاجمة الناقمين اللبنانيين فظفر الثوار واستولوا على ١٨٠ بندقية للعدوّ . فكتب ابراهيم باشا الى اللبنانيين ينكر ان يكون في نية حكومته تجنيدهم ، ويشدّد في النفي مقسماً « بحياة عزيز رأس ابيه الخديوي الاعظم ورأسه » . ثم يهدّد الثائرين « بتدميرهم وتخريب اماكنهم كافة »[2] ان هم لم يرتدعوا عن مقاومته . فلم يرتدّ الوطنيون بل تقاطر فريق منهم الى كنيسة مار الياس في انطلياس ، واقسموا بأن يكونوا جميعاً « من دروز ونصارى ومتاولة واسلام المعروفين بجبل لبنان » ذوي « قول واحد ورأي واحد . »[3]

وفي ٨ حزيران ، اذاع الثوار نداء الى جميع مواطنيهم يدعونهم فيه لقتال المصريين، وسنعود بعد قليل الى مضمون هذا النداء الذي يصحّ ان يُعدّ دستور الثورة اللبنانية . وتتابعت المناوشات بين الثوار اللبنانيين والجنود المصريين . وكثر عدد الاولين واتسعت الحركة الوطنية . فأرسل محمد علي حفيده ، عباس باشا ، الى لبنان على رأس ١٢ الف رجل ، فوصلت هذه القوة الى بيروت في

١) سليمان ابو عز الدين : ابراهيم باشا في سورية ، بيروت ١٩٣٩ ، ص ٣٦٠
٢) اسد رستم : الاصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا ٥ : ٩٨
٣) رستم : ك.م. ٥ : ١٠١

٢٧ حزيران ١٨٤٠ . وجاء عثمان باشا من شمالي سورية الى بعلبك بقوة مثلها . وكان في الوقت نفسه سليمان باشا يهاجم الجبل من جهة السواحل بنحو عشرين الف جندي[١] . فكانت الحملة شديدة الوطأة ، لا سيما وان سياسة الامير بشير الموالية لابراهيم باشا ، وسياسة التفريق المذكورة قبلاً بين النصارى والدروز كانتا قد اوجدتا الانقسام بين اللبنانيين . امّا الثوار فانهم ، بالرغم من هذا الضعف ، كادوا يفوزون على جنود عثمان باشا في البقاع ، وعلى جنود عباس باشا في ضواحي بيروت . ولكنهم فشلوا في سنّ الفيل (ضواحي بيروت) فاضطربت الحال بينهم وتشتتوا . وفي ٧ آب تمكن الجند المصري من القاء القبض على ٥٧ شخصاً من الامراء والمشايخ وسائر الاعيان فأبعدوا الى سنار (السودان). وجُرّد اكثر اللبنانيين من سلاحهم[٢] .

ولكن انتصار ابراهيم باشا كان وقتيًا . فان مؤتمر لندن لمشلي انكلترة والنمسة وپروسية وروسية كان قد قرّر ، في ١٥ تموز ١٨٤٠ ، ان يوجه الى محمد علي انذارًا بوجوب الانسحاب بجيوشه الى مصر في مهلة عشرة ايام . وعندما مرّ الموعد المضروب دون ان ينفّذ المصريون مطالب الدول انتقلت هذه الى العمل ضد محمد علي ، فأرسلت انكلترة سفنها الى شواطئ الشرق الادنى واذاع السير شارل نابيير نداء الى جميع السوريين واللبنانيين يدعوهم فيه الى الثورة . ومما قاله : « يا اهالي جبل لبنان ، انكم بنوع خاص تشغلون نظرنا . انهضوا والقوا عنكم النير الذي يزعجكم . ان العساكر والسلاح والذخائر سوف تأتيكم من الاستانة ولا خوف بعد الآن على شواطئكم من المراكب المصرية . »[٣]

وفي ١١ ايلول نزل في جونية عشرة آلاف رجل يقودهم السر شارل نابيير ، فاتحد بهم الثوار اللبنانيون ، وقد عادوا الى القتال عند وصول النجدات الاوروبية والعثمانية ، واخذوا يهاجمون الجيش المصري في مواقعه التي كثرت في الجبال على اثر فوزه الاخير . فقسّم ابراهيم باشا جنوده في لبنان الى ثلاث فرق : سارت

١) سليمان ابو عز الدين : ك . م . ص ٢٦٥

٢) سليمان ابو عز الدين : ك . م . ص ٢٦٩

٣) Jouplain. *La Question de Liban*, Paris, 1908, p. 227

الاولى تحت امرته نحو بيت شباب الثائرة ، وبقيت الثانية تدافع بقيادة سليمان باشا عن بيروت ، وتمركزت الاخيرة — وعلى رأسها عثمان باشا — في ميروبا ، قاصدة ان تحول دون اتصال ثوّار كسروان بالشواطئ . فهاجم الثوار ، بقودهم الامير بشير ملحم (خصم الامير بشير الحاكم) ، عثمان باشا واضطروه للفرار بفرقته الى بعلبك . ثم قاموا بحركة التفاف قطعت ابراهيم باشا عن نجدات كان ينتظر قدومها من البقاع ، فتمكن العثمانيون بقيادة السر شارل نابيير ان يهاجموا القائد المصري الاكبر . واضطر هذا الاخير ان ينسحب بدوره الى جرود كسروان فإلى بعلبك (٤—١٠ تشرين الاول) . وعلى اثر هذا الفوز استولى الانكليز على بيروت[1] . وفي ٩ تشرين الاول ، عند انتهاء مهلة اعطاها الحلفاء لتسليم الامير بشير الكبير (مما سوف نعود اليه) ، صدر فرمان بتعيين الامير بشير ملحم حاكماً على لبنان ، وقد عرف الحاكم الجديد باسم بشير الثالث او « بشير بوطحين » . وتقدّم الامير بشير الثالث على رأس رجاله الى حمانا يراقب حركات الجيش المصري المحتشد في زحله والبقاع . ولكن المصريين لم يحاولوا مهاجمة لبنان واخذوا ينسحبون . فبلغت الثورة اللبنانية غايتها الاولى .

روينا اعمال الثورة باختصار كي نحيلي الراغبين في اطلاع واسع على تلك الحوادث الى المؤلفات المذكورة في حواشي هذا المقال . واننا نريد التوقف قليلاً للنظر في ميزات تلك الثورة :

ان لثورة ١٨٤٠ عدة ميزات على ما تقدّمها في لبنان من حروب اهلية :

فيها تدخل ممثلو الدول الاوروبية بصورة علنية وباجتهاد متواصل ، ولا غرو في ذلك فان الثورة اللبنانية تؤلف حادثاً من حوادث المشكلة المصرية التي كادت تقضي على التوازن الدولي في القرن الماضي . بل ان الثوار اصبحوا ، ابتداء من ١٢ آب (تاريخ نداء نابيير المذكور اعلاه) ، احدى الفرق المنتمية الى الحلفاء في قتال المصريين .

(١) Jouplain, *op. cit.*, pp. 234-235

وفي ثورة ١٨٤٠ ، كثر ايضاً ، خلافاً للسابق ، تدخل الاكليروس اللبناني في مراحلها. فقد كتب الثوار في اوائل حزيران يستعطفون البطريرك الماروني[١] ، ثم اصدر سليمان باشا انذاراً يحذّر فيه الرهبان من قبول الثوار في اديرتهم[٢] . وفي ٢٠ حزيران كتب اسقف صيدا الى البطريرك متخوّفاً من خراب البلاد على اثر « اجتماع الناس ضد خاطر ولي الامر » ، ملتمساً من رئيسه الروحي ان يجمع الاساقفة وسائر الاكليروس لينصحهم بأن يعملوا ما يطمئن الافكار ويوقف الفتن[٣] . وقد تذمّر الامير خليل ، ابن الامير بشير ، من موقف الاكليروس الماروني في كسروان وارسل من ينذر البطريرك بوجوب تغيير الكهنة في غزير وجوارها[٤] .

وامتازت الثورة المذكورة بصفتها الشعبية . وقد اصاب برلس فحيم عندما وصفها بأنها « قومية وشعبية »[٥] . ومن تدابير القائمين بها ما يجوز ان يُسمى بدعةً في لبنان الاقطاعي ، فيُعلن نداء ٨ حزيران انتخاب جمعية مؤلفة من خمسة اعضاء يمثلون جميع النواحي « ويعقدون كلهم او بعضاً مجلساً في مكان مناسب للاتفاق على وضع ادارة منظمة » . ثم يقول : « وينتقي (مجلس الاعضاء الخمسة) عشرة آلاف من رجالنا البواسل لمقاومة كل الدسائس والحركات العدائية المسددة نحو حريتنا وتخصص الضرائب — التي كان في نية الحكومة استيفاؤها من الذين كانت تريد تجنيدهم لو لم تنهض عليها — لشراء المؤن اللازمة للعشرة آلاف مقاتل »[٦] . وقد اظهرت تلك الحوادث ابطالاً شعبيين كالشتيري ، وابي سمرا غانم ، وشبلي العريان ، واحمد داغر . فتكون الثورة اللبنانية قد جمعت في رأسها سلائل البيوت الاقطاعية وابناء الطبقات الشعبية ، متخذة صبغة قومية

١) اسد رستم : الكتاب المذكور ٥ : ٩٤
٢) اسد رستم ك. م. ٥ : ١٠٢
٣) اسد رستم ك. م. ٥ : ١١٧
٤) اسد رستم ك. م. ٥ : ١٥٢
٥) Jouplain, *op., cit.* p. 219
٦) من نداء ٨ حزيران — انظر « مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية » لفيليب وفريد الخازن ١ : ٤ ؛ واسد رستم : ك. م. ٥ : ١٠٢

وهي الميزة الاخيرة والكبرى.

قلنا مع بولس نجيم ان ثورة ١٨٤٠ حركة « قومية وشعبية »، وبالصفة الاولى قد امتازت، لا عمّا تقدمها من الحروب في لبنان، بل عمّا جرى من الحوادث في الشرق الادنى في القرن التاسع عشر:

اذا شئنا ان نبحث عن غاية وطنية — حقيقية او مصطنعة — لقادة الثوّرين في الحروب التي جرت بين محمد علي والدولة العثمانية، وفي الثورات التي قامت خارج لبنان بوجه ابراهيم باشا، لن نعثر عمّا نطلبه. فان ابراهيم باشا، عندما هاجم « الاقطار الشامية » في سنة ١٨٣١، اذاع انه قادم باسم السلطان العثماني نفسه ليقتصّ من عبدالله باشا والي عكا. ولما سأل إمامٌ دمشقي هل يجب ان يوضع اسم محمد علي مكان اسم الخليفة محمود في صلاة الجمعة، امر ابراهيم باشا بتأديب الامام السائل[1]. ويقول محمد علي في رسالته الى ملك فرنسة المؤرخة في ١١ تشرين الثاني سنة ١٨٤٠: « ان جميع اعمالي صدرت عن حبي لوطني فقد كنت تمكنت بعد مساعٍ جسام... من توطيد الراحة في سورية... ان وجود سورية بيدي لعامل قوي يمكنني من مدّ يد المساعدة الفعالة لجلالة السلطان ولتركية... فان مساعي الذين توهموا انهم يعملون على ضمان سلامة كيان السلطنة العثمانية بتحريض احدى ولاياتها على العصيان لم تؤول الى تحريك كل البلاد بل الى ايقاد نار الحرب الاهلية. »[2]

امّا الوطن الذي يذكره في بدء الرسالة، فلا تعريف له. أتكون سورية التي احب الخديوي المصري ضمان راحتها؟ أتكون تركية وقد حاربها ليمدّ لها يد المساعدة؟ أتكون مصر، مصدر تلك الحركة؟ والحق يقال، ان محمد علي لم يكن ليعرف سوى « مصالحه الشخصية ومصالح اسرته » التي يتحدث عنها في الرسالة نفسها وليست مصر في نظره سوى « إيالة » عثمانية استولى عليها ويودّ ان تتسع سلطته الى سائر « الإيالات » العثمانية، ولربما طمع بالخلافة

١) Poujoulat, *op. cit.*, p. 313

٢) ف. وف. الخازن ك. م. ص ٦٤

الاسلامية. اما الوطنية والقومية، كما نعرفها، فلم تخطرا له ببال، كما لم تخطرا ببال اعدائه اسياد السلطنة العثمانية.

فلنعد الآن الى الثورة اللبنانية ولنطالع نداء ٨ حزيران المذكور سابقاً، ومطاليب الثوار، وجواب فريق منهم على سؤال وجهه اليهم الامير بشير الكبير.

ان نداء ٨ حزيران قد طُبع اولاً مترجماً الى الفرنسية في الجزء الثالث من « مجموعة معاهدات الباب العثماني » (باريس ١٨٦٥) للبارون ده تستا[1]. وفي هذه النشرة وردت التعابير التالية « الى المواطنين الاعزاء . . . انفة اللبنانيين وروح الاستقلال. . . حفظ شرفهم (اللبنانيين) وكيانهم » ولكنها غير واردة في نسخة عربية وجدها الدكتور اسد رستم في دار القنصلية البريطانية في بيروت فنشرها في « الاصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا.»[2] وعلى كل فان النداء يحمل على الحكومة المصرية لاعتدائها على حرية اللبنانيين، وارهاقهم بالضرائب، والقاء الفتن فيما بينهم، وتجريدهم من سلاحهم بواسطة الخداع، وتجنيد فريق منهم. ويدعو القائمون بالثورة مواطنيهم الى الاتحاد والعمل السريع لمقاومة « العبودية »، ذاكرين مثل « الفرنسويين الذين عندما هددوا بالاستئصال اذا لم يستسلموا فضلوا الموت فخاضوا غمرات الوغى وكسروا ١٥٠ الف رجل»[3]، ويختمون — بعد تنظيم جمعية ثورية كما رأينا اعلاه — قائلين: « وقد سبقتكم الاروام على القيام وحصلوا على الحرية المطلقة من الله. » وفي الجملة الاخيرة تذكير بثورة اليونان (سنة ١٨٢٨) التي ادّت بتلك البلاد الى استقلالها التام. ولا ننسَ ما جاء في بدء المنشور من التمييز بين الحكومة المصرية التي قام الثوار يحاربونها وبين الامير بشير وقد سكت اللبنانيون، حتى ذاك التاريخ، عما اصابهم « لاجل طاعتهم لسعادته ». بل انظر الى مطالب الثوار اللبنانيين كما قدّموها الى الامير امين، ابن الامير بشير:

---

١) Jouplain, *op. cit.*, p. 288 : طالع تعريب النشرة في المخازن: ك. م. ص ٢

٢) رستم: ك. م. ٥: ١٠١

٣) في نشرة « المحررات السياسية » وردت عبارة « قتلوا » بدلاً من « كسروا » التي فضلناها وقد جاءت في نشرة الاستاذ رستم. ولا ندري الى اية حادثة اشار كاتب النداء.

بقاء سلاحهم في ايديهم وعدم تجنيدهم ، وتنظيم جباية الضرائب وانشاء « ديوان مشورة » في بيت الدين لتمثيل البلاد ، وابعاد الشاعر بطرس كرامه عن ديوان الامير[1] .

اما الطلب الاول فهو يهمّ كرامة البلاد . وفي الطلبين التاليين رغبة في التنظيم المالي والحكومي جديرة بالانتباه . واما الطلب الاخير فانه يهمّنا في هذا المقام لأنه يرمي الى جعل ديوان الامير وطنياً صرفاً ، بعيداً عن تأثير الشاعر الحمصي ، خليفة آل البحري اعوان الحكومة المصرية .

ولمّا اراد الامير بشير ان يقنع الثوّار بالعودة الى الهدوء ، فاوض اهل الشوف واستوضح موقفهم من الحكومة والثائرين فاجابوا انهم « بقلب واحد درزي ونصراني » ، وانهم لا يسلمون سلاحهم ولا يقبلون بالجندية ، ولا يسمحون للجند المصري بدخول البلاد ، ولا يحاربون احداً من مواطنيهم الّا اذا كانت غايته مقاتلة الامير الحاكم .[2]

اذاً لم يعد من ريب في ان غاية الثورة اللبنانية كانت اولاً وآخراً مقاومة الحكومة المصرية واستبدادها بالوطنيين ، والدفاع عن كيان لبنان وحرياته .

فأين هذه النفحة الوطنية تصدر من شعب صغير فقير في اواسط القرن التاسع عشر من روح محمد علي واعدائه العثمانيين كما تراءت لنا في الاسطر السابقة ؟

اما الامير بشير ، فان الثوار ظلّوا يحترمونه حتى آخر لحظة من وجوده في وطنه . ولا غرو في ذلك ، فكان قد مضى عليه نحو ٥٢ سنة وهو على رأس البلاد يحافظ على كرامة شعبه الصغير ، ويوفّر له الامن وسائر اسباب النجاح .

فكيف ادّت ثورة ١٨٤٠ الى خلع الامير ونفيه ؟ نصل هنا الى الحادث التاريخي محور مقالنا ، فنرى موقف الامير من الثورة وظروف استسلامه الى الاميرال الانكليزي .

---

١) ابو عز الدين : ك . م . ص ٢٦٤

٢) ابو عز الدين : ك . م . ٢٦٨

الحادث

ان الثوار ، في ندائهم المشهور ، قالوا انهم سكتوا حتى الآن عن انواع الظلم التي الحقها المصريون ببلادهم ، اكراماً للامير بشير الذي « امنهم وطمنهم بالراحة وبعدم الرد عليهم » ، ولكن حكومة ابراهيم باشا « غدارة وخداعة احتسبت خداعة سعادته كلا شيء بل اظهرت له النفور في ترسوس كما قد بلغ البعض لما اعتذر عنهم » .

ترى ، ماذا جرى في طرسوس ؟ لا نعرف عن تلك الحادثة غير ما جاء في الجملة المذكورة ، ونستنتج منها ان الامير شعر بالضيم اللاحق برعاياه فنبّه عليه ابراهيم باشا فلم يأت التنبيه بالنتيجة المتوخاة . وفي ١١ حزيران كتب قنصل روسية الى حكومته يقول : « لقد لفحت سموم الفتنة في لبنان من جراء اصدار ابراهيم باشا امره بتجريد الموارنة من اسلحتهم رغماً عن توالي نصائح الامير بشير له بتحاميّ جمعها »[1] ثم انه على اثر مهاجمة الاسطول الانكليزي لبيروت وتراكض اللبنانيين الى جونيه لاستلام السلاح من ايدي الحلفاء، استدعى ابراهيم باشا الامير بشيراً الى مقابلته في بعبدك وسأله رأيه في الحالة ، فأشار عليه بإعادة سلاح اللبنانيين اليهم وباعادة ما جبي منهم سابقاً باسم ضريبة « الاعانة »[2] .

في ما تقدم يظهر لنا الامير الكبير كأنه يعطف على شعبه ، ويودّ ان يخفف من آلامه ويحافظ عما تبقى له من كرامة . ولكنه يصطدم بارادة حليف قدير لا يحفظ عهداً ولا يرحم مخالفاً ، فيُبان في طرسوس ولا يُستمع الى نصائحه . وهو يريد ، قبل كل شيء ، ان يحافظ على علاقاته الطيبة بابراهيم باشا فيسكت عن هذا الاستبداد ، ويقاوم رعاياه في ثورتهم على الحكومة المصرية ، بل يبالغ في الاخلاص لهذه السلطة فيأمر حفيديه بالتوجه الى صيدا للإتيان بالجنود المصريين الى بيت الدين[3] . وفي طلبه الاخير يقلّ وطنيةً عن محكوميه وقد

---

١) الخازن : ك. م. ص ٥

٢) الشدياق : اخبار الاعيان في جبل لبنان ، ص ٦٠٤

٣) الشدياق : ك. م. ، ٥٦٥

رأيناهم يعلنون ، في ساعة واحدة ، اخلاصهم لاميرهم وارادتهم في منع الجيوش المصرية من دخول بلادهم . وقد افرط في اخلاصه هذا — او بالاحرى في تظاهره بالاخلاص — فكتب الى القائد المصري عثمان باشا طالباً منه ان ينهض بفرقته الى المتن[1] . بل لنقرأ نشرة الامير بتاريخ ٣ ايلول سنة ١٨٤٠ :

« ان وصول الانكليز الى ثغر بيروت غايته خدعكم واخذكم بالحيلة لاضلالكم . وعليه فكل من قبل منهم كتابات ترمي الى التحريض على الثورة يجب عليه ان يسلمها لاولادي الامراء حتى اذا لم يفعل عوقب بالموت .

« وكل من يأخذ منهم سلاحاً او ذخيرة او مؤنة دون اذن من حكومتي ، فعقابه الموت . وكل من يضيف الجواسيس الذين يأتون للحض على شق عصا الطاعة او يصغي اليهم فعقابه الموت ايضاً . . . »[2]

ولكن خطأ الامير الاكبر كان في مساعدته لابراهيم باشا على القاء بذور الفتن بين الطوائف اللبنانية . ففرّق الحليفان بين النصارى والدروز عند نزع السلاح في سنة ١٨٣٥ ، وقاد الامير رعاياه النصارى في سنة ١٨٣٧ الى حوران لقمع ثورة الدروز . ثم عاد في سنة ١٨٤٠ ، في اثناء الثورة اللبنانية ، يدعو الدروز الى التخلّي عن الثوار المسيحيين . ويعدهم ، لقاء عودتهم الى السكينة ، بتخفيض الضرائب واعفائهم من التجنيد والسخرة[3] . فتوفّق قليلاً وكان توفيقه ويلاً على شعبه .

هكذا كان موقف الامير مضطرباً بين واجب الامانة نحو شعبه اليائس الثائر وبين ارادة ابراهيم باشا ، عندما تراجع المصريون عن لبنان على نحو ما رأينا . فاتصل به الاميرال ستوپفورد ، قائد الاسطول الانكليزي ، طالباً اليه الانضمام الى الحلفاء . وقيل ان الامير وقع عهداً يعترف فيه بسيادة الخليفة العثماني ، ولكنه كان لا يزال ، في الايام الاولى من تشرين الاول ، واثقاً بقوة محمد علي وبنجدة فرنسة ، فتردّد في قطع علاقاته بالمصريين وانتظر بضعة ايام رغم

١) الشدياق : ك. م. ، ٥٩٦

٢) الخازن ك م ص ٣٠

٣) Poujoulat, *op. cit.*, p. 561-595

وعد الانكليز بالاعتراف به اميرًا مستقلًا وراثيًا على لبنان . فأعطي مهلة ثمانية ايام انتهت في ٩ تشرين الاول دون ان يعطي جواباً على الانذار . فأعلن الفرمان السلطاني القاضي بعزله وبتولية الامير بشير الثالث مكانه . وكان بشير الكبير قد قطع الامل من حلفائه ، فاودع بعض مواده الثمينة في اديرة مختلفة ، وترك بيت الدين في ١٠ تشرين الاول ، يرافقه زوجته ، وابناؤه الثلاثة ، وحفيد له ، ومدبره ، وبعض الاعيان ، ومعه خزينته التي قدّر الشدياق انها تحوي « ثمانية عشر الف كيس من النقود الذهبية القديمة . »[1] وبات الامير الراحل ليلة في الاولي ، قرب صيدا ، ولمّا علم متسلم المدينة المذكورة بقدومه نصب له الخيام ، واستقبله بكل اكرام ، وادّى له الجند التحية الرسمية على عزف الموسيقى ، ثم توجهت به الباخرة الانكليزية الى بيروت حيث سُئل ان يختار مكاناً لمنفاه في اي بلد يشاء خارج مصر وفرنسة . فاختار مالطه وركب الباخرة ، بعد خمسة ايام ، برفقة زوجته ، واولاده ، واكثر احفاده ، ومدبره بطرس كرامه ونحو سبعين رجلًا من حاشيته . وسافر الى الجزيرة المختارة فاشتهر بلقب « المالطي » ، وتلك كانت ثالثة الاثافي . . .

وبعد ان مكث احد عشر شهرًا في مالطة طلب ان ينتقل الى الاستانة فأُذن له . فقدم العاصمة الكبرى وعاش فيها الى ان توفي في ٣٠ كانون الاول سنة ١٨٥٠ ودُفن في كنيسة الارمن الكاثوليك .

❁

ان الكثيرين قد استغربوا تردّد الامير الكبير في الدفاع عن كيان شعبه ، بعد إخلال ابراهيم باشا بعهوده ، وخصوصاً تردده في قبول الانضمام الى الحلفاء بعد ان وعدوه بالامارة الوراثية على لبنان مستقلّ .

والاستغراب في محله . لكن يجب ان لا ننسى ان الثورة اللبنانية وقعت في العام ١٨٤٠ ، اذ كان قد اصبح عمر الامير اثنتين وسبعين سنة ، وكان يحكم بلاده منذ اثنتين وخمسين سنة . فكان قد تعب ، لا سيما وفي ايام

---

١) الشدياق : ك . م . ص ٦١٠

حكمه كثرت المشاكل والهموم . بقي في البدء اكثر من خمسة عشر عاماً في حروب اهلية دائمة مع انسبائه مزاحميه على الامارة ، فيفرّ تارة من لبنان ، وطوراً يقع اسيراً في ايدي الجزار . فأصبح الحذر مبدأه ، وما سياسته في العهد المصري الّا سياسة حذر دائم ، وقد رأيناه في آخر دقيقة ، عندما اراد مغادرة بيت الدين ليسلّم نفسه في صيدا ، «يظهر لبحري بك انه متوجه الى الشوف لجمع الرجال»[1]. هي صفحة مؤسفة من تاريخ الامير الكبير .

ومن الحق ان نعترف لبشير بانه في السنين الاخيرة لم يعد المسؤول الوحيد عن حكمه . فقد كان ، كما قلنا ، تعب من الاشغال ، فسلّم الامر لابنه الامير امين[2]. وكان هذا الاخير تلميذاً للشاعر بطرس كرامه وصديقاً حميماً له . اما بطرس كرامه فكان غريباً عن لبنان ، ونسيباً لآل البحري معاوني ابراهيم باشا . وصادف تعيينه مديراً للامور (١٨٢٨) المدة التي كان الامير يمهّد فيها السبيل للفتح المصري ، فكان عيناً للحكومة المصرية على البلاط اللبناني . ومن يقلب صفحات المصادر التاريخية لذاك العهد يجد الامير امين المذكور ، متولي الامر من قبل ابيه ، وصديق بطرس كرامه ، اكثر الامراء تقرباً الى السلطات المصرية . فكثيراً ما نقرأ في « اخبار الاعيان » للشدياق ان ابراهيم باشا « كتب الى الامير ان يرسل له ولده الامير اميناً فأرسله » ، او « صار الامير امين . فاستقبله الوزير احسن استقبال »[3] فلا غرو اذا عرف الثوار بتأثير الشاعر بطرس كرامه على ولاة الامر الوطنيين تأثيراً مضراً بمصلحة البلاد فطالبوا بإبعاده عن بيت الدين . وكانت آخر نصائح المدبر الحصي اشارته على الامير بعدم التسليم للإنذار الانكليزي ، فضاعت فرصة ثمينة لجعل الحكم وراثياً في لبنان ، وبالتالي مستقلاً عن كل نفوذ خارجي .

---

١) الشدياق : ك . م . ص ٦١٠
٢) الشدياق : ك . م . ص ٥٦٣
٣) الشدياق : ك . م . ص ٥٧٥ ، ٥٧٨ ، ٥٨٣ ، ٥٨٣

النتائج ان طول العهد الذي حكم فيه الامير بشير جعل منه سلطة ادبية لا تُنازَع . لنطالع كل ما قيل وكتب في اضطرابات لبنان على اثر احتلال المصريين لأراضيه ، فلا نعثر على جدال في حق الامير بالولاية . وقد رأينا الثوار يميزون بين الحكومة الاجنبية التي قاموا يحاربونها وحليفها الامير بشير فيكرمون هذا الاخير ويضعون شخصه خارج النزاع .

فلمّا انهارت هذه الشخصية سقط معها صرح الوحدة اللبنانية . وكانت الدعايات الاجنبية على اختلافها ، في السنين الاخيرة من ولاية بشير الكبير ، لم تغفل عن طريقة في هدم هذه الوحدة . وبينما كان اللبنانيون في حروبهم الاهلية الماضية ينقسمون الى حزبين ، جنبلاطي ويزبكي ، فيؤيد كل من الفريقين ترشيح امير شهابي لتسلّم الاحكام ، ولا يعرفون للطائفية معنى ، حتى ان امير لبنان كان يدعى في الفرمانات الرسمية « امير الدروز » ، وغالباً ما كان مسلماً سنياً او نصرانياً دون ان يهتم بالامر احد من رعاياه — بينما كان اللبنانيون في الماضي لا يثورون على الحاكم الا وقد رشحوا للجلوس مكانه اميراً شهابياً ثانياً ، اذا بهم بعد سقوط بشير الكبير ينقسمون طوائف ويجادلون في نظامهم التاريخي .

فيطلب النصارى ان يكون حاكم لبنان اميراً مسيحياً ، ويعلن الدروز انهم غير راضين عن تعيين الامير بشير الثالث حاكماً لأنه مسيحي[1] . فلم يطل اجل ولاية الامير بشير الثالث ، وكثرت المناوشات الدامية بين ابناء الوطن الواحد ، فأُعيد النظر في وحدة الاراضي اللبنانية ، تلك الوحدة التي ثابر امراؤنا على تأليفها والمحافظة عليها مدة قرون ، فقُسم لبنان الى قائمقاميتين ، درزية ونصرانية ، فعجّلت وقوعَ حوادث ١٨٦٠ .

وتداعى في الوقت نفسه نظام لبنان الاقطاعي ، وكان الامير بشير الكبير قد ضربه الضربة الاولى بإبعاده اكثر ابناء الاسر الاقطاعية عن حكم اراضيها . فلمّا ارتحل الامير عن البلاد ، ظنّ هؤلاء انهم يعودون الى سالف مجدهم ، ونسوا ان الشعب ، وقد شاهد سقوط اعظم سلطة عرفها منذ قرون ، لن يدعهم يحكمونه كما في السابق . فكانت حوادث سنة ١٨٥٨ .

١) المنازن : ك . م . ص ٥٠

وفي وسط تلك الانهيارات الهائلة التي شهدها هـذا الوطن الصغير على اثر نفي الامير ، بقيت سلطة واحدة لم يكن لها شأن سياسي يُذكر في عهد الامارة ، فكثر الدوران حولها في ايام الثورة على ابراهيم باشا ، وكان لها قسط في قلب النظام الاقطاعي ، حتى اذا خلت البلاد من سلطاتها التقليدية ، الامراء واصحاب الاقطاع ، برزت الى الوجود تعمل في سبيل لبنان وتحافظ على ما كان في الامكان المحافظة عليه ، هي البطريركية المارونية .

انطوى ، بنفي الامير ، فصل من تاريخنا بدأه فخر الدين في سبيل توحيد لبنان ، وواصل خلفاء فخر الدين عمله حتى كانت فرضى ١٨١٠ ، فظن الكثيرون انه قُضي على هـذا الوطن الصغير . ولكن العالم شهد بأنه لا بـد من الوحدة اللبنانية لتوطيد الامن واسباب المدنيـة في الشرق الادنى ، فتدخلت الدول العظمى ، في سنة ١٨٦١ ، لتضمن لنا الراحة والطمأنينـة ، ووضعت النظام الذي عاش حتى سنة ١٩١٥ . فقام ابناء لبنان ، في ظل ذلك النظام — وبالرغم من الهزات العنيفة الدامية التي مرت عليهم على اثر المغامرة المصرية وما وليها من بتر وطنهم — بمشاريع عمرانية واعمال ثقافية خلدت لهم ذكرًا في انبعاث الشرق .

ومن الحوادث التي رأيناها نحفظ امرين ، اولهما ان بشيرًا اوشك ان يضيع ببضع سنوات ما كان قد بناه هو وآباؤه مدة قرون ، لأن الجرأة نقصته في علاقاته بالحليف المصري ولأنه استسلم لآراء مدير غريب عن البلاد وشعورها .

اما الامر الثاني فهو ما جاء في كتاب رفعه ممثل روسيـة في بيروت الى حكومته في ١١ حزيران ١٨٤٠ : «وكما ان انضمام اللبنانيين الى جيش ابراهيم باشا ، في سنة ١٨٣٢ ، قد جرّ معه خضوع كل سورية ، فلا يبعد ان ثورتهم اليوم ستؤول الى طرد المصريين نهائيًا من هذه البلاد .»[1] وتعاقبت الايام محققة ظن الكاتب في تأثير هذه الامة الصغيرة في احداث الشرق الادنى .

---

١) المحفوظ : ك . م . ص ٦

المستشرقون الراهلونه : ٢

الاستشراق في بلاد الانكليز

قبل مرغوليوث

لقد ضربت انكلترة في علوم الاستشراق بسهم وافر . وهي ، وان لم تكن السابقة الى هذه الدروس في اوربة ، الّا انها سريعاً ما نهضت الى مجاراة الدول الغربية في علوم الشرق . فاخرجت كبار المستشرقين العالمين منذ القرن السابع عشر ، وما اسماء ادمون كاستيل (E. Castell) وادوارد پوكوك (Pococke) الّا الشاهد المقنع على مساهمة الانكليز في هذه العلوم الجليلة .

عُرف كاستيل (١٦٠٦–١٦٨٥) ، اول اساتذة العربية بجامعة كمبردج ، بمعجمه المشهور الذي لم يقصره على اللغة العربية ، بل توسّع فيه حتى جعله شاملاً للغات الساميّة ، ونشره سنة ١٦٦٩ ، بعد ان اشتغل في اعداده ثماني عشرة سنة . فاتى عمله الأوّل من نوعه ، وظلّ مدة طويلة مرجع الابحاث اللغوية الساميّة .

اما پوكوك (١٦٠٤–١٦٩١) استاذ العربية في جامعة اكسفرد ، فقد فاقت شهرته شهرة زميله الكمبردجي . درس العربية في بلاده فلم يكتفِ بذلك ، بل شاء مزيد تضلّع وتعمّق فقصد الشرق سنة ١٦٣٠ ، واقام في حلب خمس سنوات استفاد في اثنائها معارف واسعة ، ومخطوطات عديدة . وكأنّه أصيب بالاستشراق البلدي مع الاستشراق العلمي ، فما كاد يصل الى اكسفرد ويرتقي المنبر الجديد لتعليم العربية ، حتى رأيناه يزمّ رحاله سنة ١٦٣٧ فيعود الى حلب ،

مستزيداً من المعلومات ومن المخطوطات كذلك ، قاضياً اربع سنوات في الدرس والتنقيب . حتى اذا كانت السنة ١٦٤١ رجع الى انكلترة حاملاً ، في جملة ما حمل ، شجرة تين نصبها في حديقة اكسفرد فكانت ، ولا تزال ، اول شجرة من نوعها في بلاد الانكليز .[1]

اما الآداب العربية فمدينة ليوكوك باول طبعة لكتاب «مختصر الدول» لابي الفرج بن العبري ، وبمجموعة من ٤٢٠ مخطوطة ، لا تزال في مكتبة اكسفرد هدفاً لابحاث العلماء ، وبمستشرق آخر هو كبير اولاده ادوارد پوكوك (١٦٤٨—١٧٢٧) . تسمّى باسم ابيه ، واقتفى أثره في اختصاصه .

◻

ويرى القرن الثامن عشر تقدّم الدروس الاستشراقية في انكلترة . فنشهد سيمون اوكلي (Ockley) (١٦٧٨ - ١٧٢٠) ، تلميذ پوكوك ، يدرّس العربية في جامعة كمبردج ، ويترك ترجمة انكليزية لحيّ بن يقظان . وتتنقل مع جورج سيل (Sale) (١٦٩٧—١٧٣٦) في درس العقائد الاسلامية ، فنطّلع على اول ترجمة اوربية كاملة للقرآن سنة ١٧٣٤ . وننتقل مع السر وليم جونس (Jones) (١٧٤٦—١٧٩٤) الى بلاد الهند ، مؤلفاً في كلكوتا جمعية اسيوية ، بادئاً عهد الدروس السنسكريتية ، بعد ان نشر ترجمة انكليزية حسنة للمعلقات السبع . ونهيم على على اثر بوركهارت (Burckhardt) (١٧٨٤—١٨١٧) السويسري الأصل من حلب ، الى مصر ، فالى الجزيرة العربية ، فالى مصر وشمالي السودان ، تاركاً مؤلفاً نفيساً في « البدو والوهابيين » و« رحلة نوبية » لا تقل نفاسة .

◻

اما القرن التاسع عشر فاهم من يمثل فيه الاستشراق الانكليزي لين (E. W. Lane) (١٨٠١—١٨٧٦) . مال منذ حداثته الى الشرق والاستشراق ، فركب البحر الى الاسكندرية سنة ١٨٢٥ ، فوصلها بعد شهرين ، واقام في

---

١) برنارد لويس في « المشرق العربي » ، لندن ، العدد ١١ (ايلول ١٩٦٠) ص ١٠ . وقد لخصنا عنه بعض المعلومات .

القاهرة ثلاث سنوات . ثم عاد اليها في رحلة ثانية فاقام فيها سنتين (١٨٣٣—١٨٣٥) . وقد استفاد في الرحلتين معارمات جمة واختبارات كثيرة سهّلت له تأليف كتابه المشهور في « اخلاق المصريين المعاصرين وعاداتهم » . ولعلّ أشهر ما ترك لين معجمه العظيم العربي - الانكليزي الذي انفق في سبيله ربع قرن ولم يتوفق الى اتمامه . ..

ونشأ الى جنب لين عدد من مستشرقي الانكليز ، اشهرهم في حقل الدراسات العربية بلُنت (W. S. Blunt) (١٨٤٠—١٩٢٢) الذي مال الى الاضطلاع بالحركات السياسية الناشئة في الشرق الادنى ، فاتصل بجمال الدين الافغاني وعرابي باشا ، وقضى آخر حياته في القاهرة لا يلبس الّا اللباس المصري ، ولا يتكلم الّا العربية . ثم شارل دوتي (Doughty) (١٨٤٣ ١٩٢٦) الرحالة المشهور الذي لا يزال كتابه عن رحلته الى بلاد العرب من اهم المصادر . وتوماس ارنولد (Arnold) استاذ الدراسات العربية في مدرسة اللغات الشرقية بلندن ، والمتوفى سنة ١٩٣٠ . وغي لو سترانج (Le Strange) صاحب « بغداد ايام العباسيين » و« بلاد الخلافة التركية » المتوفى سنة ١٩٣٣ ، بعد ان كُفّ بصره منذ السنة ١٩١٢ . وفي السنة نفسها توفي بيفن (A. A. Bevan) ، ناشر « نقائض جرير والفرزدق » . ويجب ان نذكر لايل (Lyall) ناشر المفضليات ، ولين-پول (Lane-Poole) من كبار المؤلفين في التاريخ الاسلامي . وآخر من فارق هذا العالم منهم دواود صموئيل مرغوليوث .

داود صموئيل مرغوليوث

١٨٥٨-١٩٤٠

لا مغالاة في القول ان مرغوليوث كان في اثناء الـ ٣٥ سنة الماضية ، إمام المستشرقين لدى العام والخاص في بلاد الانكليز. فانه بفضل منشوراته العلمية، وعلومه الواسعة ، وشخصيته البارزة ، والمركز الذي شغله في الجمعية الاسيوية الانكليزية (R. A. S.) ، كان يُعدّ في عالم الاستشراق باجمعه ، ممثل الدروس الشرقية في بريطانية العظمى. فضلاً عن ان مدة تدريسه تلك العلوم في جامعة اكسفرد الشهيرة قد طبّرت صيته في جميع الاوساط حتى الى اقاصي البلاد الاسلامية الشرقية ، وأدخلت اسمه في عالم الاسطورة.

ولد مرغوليوث سنة ١٨٥٨ . ونشأ في جامعة اكسفرد . فدرس فيها كنيره الآداب المدرسية القديمة. ولم يظهر براعته في اللغة العربية حتى نشر الترجمة العربية لكتاب اريسطو في الشعر سنة ١٨٧٨ . وكان ان هذا البحث لفت انظار المستشرقين فعيّن مرغوليوث استاذًا في الجامعة نفسها لتدريس اللغة العربية . وقام

حينئذٍ، فنشر نخبة من الابحاث العلمية اهمها ما نشره سنة ١٨٩٣ من مخطوطات البردي الموجودة في مكتبة اكسفرد الشهيرة (Bodleian Library).

واهتم بعد ذلك بان نقل الى الانكليزية قسماً من تفسير القرآن للبيضاوي، ورسائل ابي العلاء سنة ١٨٩٨، فبرهن على تضلّعه من اللغة العربية، وعلى براعة غير عادية في حلّ بعض الغازها العويصة.

وفي ١٨٩٦ تزوج مرغوليوث جنّي پاين سميث Jessie Payne Smith بنت العالم الشهير باللغة السريانية، فعاونها سنين طوالاً على نشر كتاب والدها «الكنز السرياني» (*Thesaurus Syriacus*). ومع هذا العمل فانه لم يكفّ عن متابعة ابحاثه الشخصية، فنشر منها عدداً من الدروس الانتقادية، في ما جاء في التوراة.

وفي ١٩٠٥ ظهر كتابه المعروف *Mohammed and the rise of Islam* اي «محمد وضحى الاسلام» نُشر في مجموعة *Heroes of the Nations* اي «كبار الرجال وابطال الامم» فلفت اليه انظار العالم واشتهر به المؤلف اختصاصياً في الشؤون الاسلامية. وتلاه بعد ذلك سنة ١٩١١ كتابه الآخر *Mohammedanism* اي «الدين المحمدي» ثم سلسلة من المحاضرات القيّمة في موضوع اتساع الدين المحمدي عند ظهوره (*Early developpment of Mohammedanism*) نشرت سنة ١٩١٤ مع عدد غير يسير من المقالات المختلفة في كثير من المجلات ودوائر المعارف (*Encyclopedies*) وقد نالت هذه الكتب الثلاثة استحساناً كبيراً لدى الجمهور وحازت نجاحاً باهراً، فكانت المثال الأعلى في بلاد الانكليز لما يصحّ قوله في هذه المواضيع. اما المستشرقون فلم يخلُ رأيهم من بعض الانتقاد. وهم، وإن كانوا يُجمعي الرأي على الاعتراف باقتدار المؤلف وعلمه المتين وسعة اطلاعه الغريبة في الشؤون الاسلامية، لا سيما في كتابه الثالث الذي جاء فيه بايضاحات وحلول جديدة لمسائل كانت غامضة من قبله، الّا انهم لم يرتاحوا لما كان يظهر في لهجته من الاستهزاء وقلة الاعتبار، مما اثار ايضاً غضب القراء المسلمين في الغرب والشرق. وهذا الروح كان يدعو الى التحفظ امام الآراء التي كان يُبديها، كلما كان الحكم منوطاً بشعور المؤلف وبنظريته الخاصة.

وجاء كتابه الاخير في السنة ١٩٢٤ عن العلاقات بين العرب وبني اسرائيل (*Relations between Arabs and Israelites*) فعرّضه للنقد نفسه مع ما جمع فيه من المعلومات الواسعة والوثائق المتينة من رقم حجرية وتقاليد أدبية قديمة.

ورغم ان المنتقدين كانوا اقل منه علماً ومكاناً، لم يلبث ان أثر انتقادهم في وضعيته، فعدّل موقفه نوعاً ما بالتدريج. وكان هذا العدول بيناً في رجوعه عما كتبه في مقالٍ نشره سنة ١٩٢٥ في مجلة الجمعية الاسيوية *J. R. A. S.* جاء فيه ان لا صحّة على الاطلاق للشعر الجاهلي[1]. وقد كان التعجب عاماً من هذا الرأي، وان لم يعبّر المستشرق عنه دائماً. واما نظريته في هذا الشأن فلم تكن راكزة على البراهين التي تقدمتها في المقال، ولكن على رأي خاصّ في النظم كان قد عرضه في كثير من مقالاته الاخرى. ومع انه لم يقرّ قطّ بأصلية الشعر الجاهلي ايًّا كان، فانه لم يبق على رأيه هذا بصورة جازمة، كما يتبيّن لنا ذلك من ملاحظة ابداها في مقال له في المجلة نفسها سنة ١٩٢٧ يلطّف فيها موقفه السابق.

شعر مرغوليوث بمواهبه الخاصة للاستشراق، وبنوع الابحاث التي توافقه، اثناء جهوده في تعريب بعض النصوص العربية وضبطها بالنشر. من ذلك ان ذاكرته كانت عجيبة تحضر له، دون عناء، المعلومات الواسعة التي جناها في مطالعاته السابقة. فكانت له بذلك معاوناً لأبحاثه ومنشوراته نادر المثال. واشتهر خاصة في هذا الحقل بنشره كتاب « معجم الادباء » لياقوت. استغرق منه عشرين سنة، من ١٩٠٧ الى ١٩٢٧. ولكن نشره لكتاب الرسائل لابي العلاء، وكتاب « نشوار المحاضرة » للتنوخي سنة ١٩٢١ كان ادلّ لدى المستشرقين على علمه ومقدرته. اما براعته في التعريب فكانت عظيمة تجمع بين دقة المعاني وسلاسة

١) من هذا المقال استقى الدكتور طه حسين نظريته المعروفة في كتابه « في الشعر الجاهلي ». والحقّ يقال ان النظريّين كليهما، المستشرق الانكليزي وتلميذه المصري، مدينان في ما في بحثيهما من نظرات معقولة لابن سلّام. راجع فؤاد افرام البستاني: الروائع ٢ (الطبعة الجديدة) ص ١٧-١٩

التعبير . تجلى ذلك خصوصاً في تعريبه « كتاب الاخبار » لمسكويه سنة ١٩٢٠ و« نشوار المحاضرة » للتنوخي ، و« تلبيس ابليس » لابن الجوزي المنشور حديثاً في مجلة الثقافة الاسلامية (*Islamic culture*) .

اما خدماته لمجلة الجمعية الاسيوية الانكليزية *J. R. A. S.* فلا حاجة الى ذكرها . فالوسام الذهبي الذي اهدي له سنة ١٩٣٨ جاء اوضح دليل على ذلك . كان اولاً تكريماً لمهارته الجبارة في ابحاثه العلمية ثم شكراً لاتعابه المصروفة في خدمة الجمعية مدة ٢٠ سنة عضواً في مجلسها ثم نائب رئيس ، ورئيساً . وكان مرغوليوث عضواً في الاكاديمية الانكليزية ، ودكتوراً في الآداب من جامعة دورهام ، وعضواً في جمعية المستشرقين الالمانية . وقد زار مراراً الشرق الادنى فاستقبله هناك كبار المسلمين بالحفاوة الشرقية المعهودة ، رغم اختلاف مذهبه عن مذاهبهم . وعندما أسس المجمع العلمي العربي في دمشق سنة ١٩٢٠ ، كان مرغوليوث من اول اعضائه الاجانب . وقد دعته جامعة كلكتا في الهند سنة ١٩٢٩ الى القاء محاضرة هناك .

كان مرغوليوث لا يضنّ بعمله وبوقته على احد . وكان كثير التشجيع لتلاميذه حتى كان يؤمّل منهم اكثر من المنتظر . وقد حقق البعض آماله بنجاحهم . وكان يبدو لمن لا يعرفه كاظم الوجه صارم الهيئة ، ولكن هذه الظواهر كانت تزول عند التقدم في معرفته ، فيجد فيه الجميع صديقاً ودوداً ورجلاً لطيفاً انيساً .

الرسم ١ : واجهة دار الآثار

دار الآثار اللبنانية

في بيروت

بقلم امينها الامير فريدريس شهاب

١

في السنة ١٩١٩ ، اخذ الكومندان ريمون ڤيل (Weill) ، احد ضباط الفرقة الفرنسوية في لبنان، يجمع بعض الآثار القديمة المكتشفة في هذه البلاد. فكان منها نواة دار الآثار اللبنانية

وُضعت هذه الآثار في غرفة من بناية الدياكونيس الألمانيات الواقعة في شارع جورج پيكو ، رقم ٧٣ . ولم تلبث ان زادت عدداً وخطورة بما كشفت عنه حفريات الدكتور كونتنو (D^r Contenau) في صيدا ، وبما قام به من هبات بعضُ اصحاب المجموعات الخاصة. حتى اذا أُنشئت مصلحة الآثار القديمة في المفوضية العليا ، ارتفعت مجموعتنا هذه الى مقام « متحف » مستعدّ لإيواء جميع الآثار القديمة المكتشفة في البلاد اللبنانية.[1]

وكان يقوم بامانة هـذا المتحف ، حتى السنة ١٩٢٨ ، السيد ڤيرولو (Virolleaud) والڤيكونت فيليب دي طرازي ، امين دار الكتب اللبنانية ، اذ ذاك. ومنذ السنة ١٩٢٨ ، كُلّف كاتب هذه السطور أمانة المتحف. ولم تمض سنوات حتى فكّرت الحكومة اللبنانية ، بناء على اقتراح لجنة المتحف المذكور ، بانشاء بناية خاصة ، هي التي نصفها ونصف ما فيها في هذه المجالة :

تقوم بنايتنا الجديدة جنوبي - شرقي المدينة ، على طريق الشام ، قريباً من غابة الصنوبر ، وفقاً لتصميم وضعه المهندس اللبناني انطوان نخّاس.

---

١) في مناطق الانتداب الفرنسوي خمسة متاحف. منها متحفنا الوحيد في لبنان. واربعة متاحف في سورية : متحف دمشق المحتوي على الآثار المتأخرة عن عهد الاسكندر ؛ ومتحف حلب الجامع تلك الآثار السابقة عهد الاسكندر . ومتحف اللاذقية المعدّ لجمع آثار بلاد العلويين ؛ ومتحف السويدا الذي يحفظ الآثار البونانية - الرومانية المكتشفة في جبل الدروز.

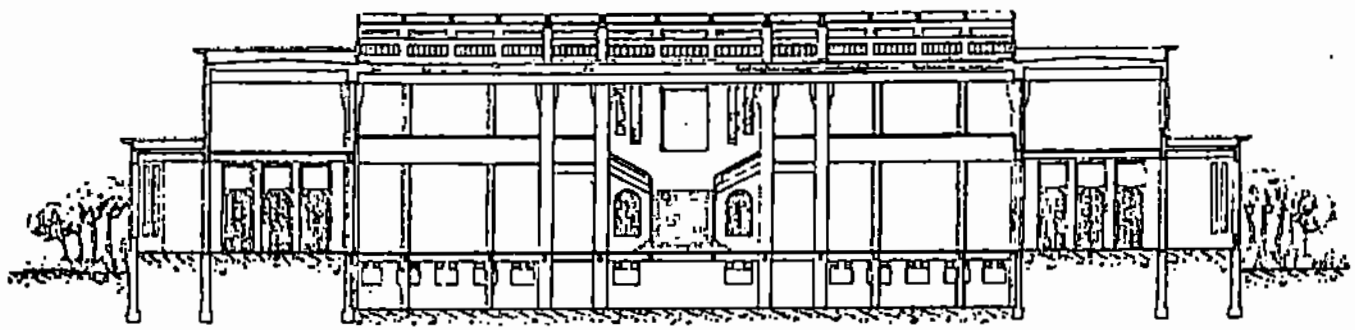

الرسم ٣ : تصميم عمودي لدار الآثار

يرتقي الزائر الى مدخلها بسُلّم عريض الدرج ، يوصل من ثلاث جهات ، الى رواق ذي اربعة اعمدة من الطراز الفنيقي المتحضّر ترتفع بين رُكنين . وينبسط وراء ذلك صحنٌ فسيح تكتنفه قاعتان بديعتان ، وتنفتح في مؤخرته غرف المجاميع . ويشتمل البناء بكامله على طبقة سفلى تحت الأرض ، وعلى طبقة أرضية ، يعلوها رواق عريض دائر حولها ، يستند الى اركان مربّعة . (الرسوم ١ و٢ و٣)

اما الطبقة السفلى فقد هُيّئت على شكل قاعة فسيحة لايواء جميع الآثار المدفنية من نواويس ، وقبور ، وشواهد ، واعمدة . وليس فيها الّا نور ضئيل يتسرّب من نوافذ ضيّقة تُتمّه الانوار الكهربائية الموافقة .

واما الطبقة الأرضية ففي صحنها الفسيح جميع الآثار غير المدفنية الراقية الى العصر اليوناني - الروماني ، وغيرها مما يتقدم عهد الاسكندر . ويمرّ هذا الصحن نورٌ كافٍ ينحدر من السقف الزجاجي الصفيق . اما الغرف المنحرفة فتنيرها نوافذ طويلة ضيّقة .

ويُصعد الى الرواق الاعلى بسلّم مزدوج في مؤخرة الصحن . وهذا الرواق يحتوي على سائر الآثار ، مرتّبة وفقاً للتاريخ ، مما سنفصّله في ما يلي .

ويلحق بهذه البناية المركزية جناح خاصّ يتصل بغرف المجموعات ، وتقوم فيه ادارة المتحف ، ودوائره ، ومكتبته .

❦

كان الفنيقيون اول الملّاحين في العصور القديمة . سادوا الى غزو الجزر من ساحلنا اللبناني . فكان كل خليج ملجأً لسفنهم ، وكان كل رأس وكل جزيرة محطّة لرحلاتهم ، او منزلًا تنشأ فيه مدنهم . ويشمل لبنان الحالي ثلاثاً من ممالكهم القديمة : جبيل ، صيدون ، صور ، كما يشمل سهل البقاع الفسيح ، الخصب ، المحدود بين سلسلتي لبنان . ولا يخفى ما في هذه المناطق من آثار تدلّ على غنى تلك المدنية السامية ، آثار كان من نصيب متحف بيروت ان يجمعها مرتّبةً ناطقة بفضل اربابها ، كما سيكون من حظّه ان يحفظ ما سيُكتشف في المستقبل .

ظلّت فنيقية ، مدة ألف سنة ، من السنة ٥٠٠ ق.م. الى السنة ٥٠٠ ب. م. تقريباً ، في عهد ازدهار عجيب . فتسابق فنّانوها وصُنّاعها في شتى

مظاهر العمل والانشاء ، مزيّنين أرضها بالهياكل ، والحمامات ، والقصور ، والصروح العامّة والخاصّة ، والمدافن الفخمة الفسيحة . وعلى الرغم مما اصيبت به بلادنا من بلايا الاكتساحات ، ومصائب التهديم والتخريب ، لا تزال الاطلال العديدة تنبت في سهولنا وجبالنا ، وقد افادتنا محتوياتها القسم المهمّ من المجموعات المحفوظة في متحفنا .

وكان من فضل العلماء المنقّبين ، في جهودهم المتتابعة المتناسقة ، ومن فضل تضحيات حكومتنا ، ما رتّب هذه البقايا ؛ فظهرت العصور الاولى من التاريخ الفنيقي الى نور العصر الحاضر ؛ مستندةً الى مكتشفات جبيل العديدة النفيسة ، كما ستستند ، عن قريب ، ان شاء الله ، الى مكتشفات صيدا التي لم تبدأ الحفريّات فيها حتى ظهرت غنيّة بالممكنات .

وقد رأينا ان نقسم محتويات المتحف اقساماً ثلاثة توافق وضعية البناء نفسه . فرتبناها كما يلي :

١ ــ في الطبقة الأرضية : مجموعة من النقوش البارزة والمنحوتات .

٢ ــ في الطبقة السفلى : كل ما تعلّق بالفنون المدفنية .

٣ ــ في الطبقة العليا : كل ما يمكن ان يعرض في خزائن البلّور من الآثار الصغيرة الحجم .

الطبقة الارضية

لقد اجتهدنا في ان نرتب الآثار وفقاً لتاريخ صنعها . ولا يخفى ان اقدم النقوش البارزة متأثرة بالفنّ المصري ، فتحتاج الى كثير من النور لتظهر نتوءاتها الدقيقة . ولهذا رأينا ان نخصّ بها الجهة الجنوبية ، وهي اوفر الجهات تعرّضاً للنور . فعلى الزائر اذن ان يبدأ الزيارة آخذاً بالجهة اليسرى .

رواق الاجدية

من اروع روائع الفكر البشري اكتشاف الابجدية . ذاك ان الجهل بالكتابة اوقف ، مدة القرون الطويلة ، انتشار الفكرة ، وبالتالي تقدّم المدنية . ولم تكن الكتابة ، على الالوف من السنين ، الّا تصويرًا للاشياء المقصودة بالتعبير .

وغنيٌّ عن البيان ان هذا الاسلوب التصويري ، على ما فيه من صعوبة ، لا يفي بالمرام ، ولا يفيد الّا في تمثيل الاشياء الحسيّة . واذا فقد ظلّت الفكرة المجرّدة عن الحسّ ، فكرة المعقولات ، حائرة ، عاجزة عن الانتقال من دماغ المفكر الى مفهوم ابناء جنسه . وعبثاً حاولت الشعوب القديمة حلّ هذا المشكل ، فلم تأتِ الّا بأساليب تقريبية ، متعدّدة الأشكال ، صعبة الحفظ والاستعمال . فظلّت معرفة الكتابة من الاسرار التي لا يضطلع بها الّا افراد قلائل في المجتمع ، يرفعهم علمهم هذا الى اعلى المراتب في الدولة .

الى ان خطر على بال الفنيقيين ان يستبدلوا بهذه الاساليب الهيروغليفية والمسمارية اسلوباً سهل المأخذ ، قليل الأشكال ، يفيدهم في رحلاتهم البعيدة ، وتجاراتهم المتشعّبة . فاطّرحوا مئات الصور والاشكال ، التي كانت قد ارتقت منذ اول وضعها ، دون ان تخرج عن كونها مَعْطيّة عاجزة عن تتبع الفكرة في ملاويها المجرّدة ؛ واستبدلوا بها جميعاً ستة وعشرين حرفاً كانت على الغاية من السهولة والمرونة والشمول حتى اننا بعد اربعين قرناً ، لا زالنا اضفنا عليها شيئاً جوهرياً ، بل لا زالنا قمنا فيها الّا بتحويرات بسيطة وفقاً للهجات الشعوب المتباينة .

وهكذا نقل الفنيقيون الكتابة من التصاوير الى الحروف . وانطلقت الابجدية في مجاري السفن ، وعلى خطوات القوافل ، منتشرةً في انحاء العالم القديم جميعها ، مقوّضة الحواجز بين المفكرين والعلماء في مختلف الأمم ، منتصرةً على الزمن في تدوين آثارهم العقلية ، ناشرةً اياها على مرّ الأحقاب وشتى البلدان .

جمعنا في هذا الرواق ، رواق الابجدية ، اهم الآثار المتعلّقة بتطوّرها منذ اقدم عصورها :

من اهمّ هذه الآثار كتابات ورقم بارزة في الحجر او على صحائف العُرُوتيّ يراها الزائر في اول الرواق ، وليست بعد من الكتابات الابجدية . ولعلّها تمثّل الدور المقطعي للكتابة الفنيقية . وهي ككلّ الكتابات السامية ، مخطوطة من اليمين الى الشمال ، على جهة طيران العصفور الذي يبدأ واحدةً منها ، بخلاف الطريقة المتخذة في تصاوير الخطّ الهيروغليفي المصري . على ان في هذه الرقم قليلاً

من الصور الهيروغليفية المشكوك في اصلها ، تظهر مكتنفة باشارات هندسية على شكل جديد نرى فيها بعض علامات ستظهر ، فيما بعد ، في الابجدية الفنيقية. وعدا هذه الملاحظات التي لا تؤدّي الّا الى الحدس والفرض ، فاننا لا نزال نجهل كل شيء عن هذه الرقم التي لم تظهر بعد الّا في حفريات جبيل .

يلي ذلك رقيم ابجدي يرقى الى القرن الثاني عشر قبل المسيح . فهو يعاصر تقريباً رقيم أخيرام ، المعروض على ناووسه في الطبقة السفلى ، والمكوّن اقدم مثال للابجدية الفنيقية الاصلية . وقد ترجم الاستاذ دونان (Dunand) هذا الرقيم بما يلي :

هيكل بناه يحملك ، ملك جبيل .
ها انه رمّم جميع خرائب هذه الهياكل .
فليمدّ بعل شمين وبعل جبيل وجميع آلهة جبيل
القديسين ايام يحملك وسنيه على جبيل ، لأنه ملك
عادل ، ملك مستقيم ، تجاه آلهة جبيل القديسين .

وهناك قالب عن شاهد ميشاع ، ملك بلاد موآب (شرقي الاردن) الراقي الى القرن التاسع ق.م. يلخّص الشاهد غزوة اخاب ، ملك اسرائيل ، لتلك البلاد ، والتضحية بابن ميشاع لالهه كاموش. ثم يسدّ الثلمة الموجودة في نصّ الكتاب المقدّس عن هذه الغزوة ، بما يفيده من تفصيل في انكسار أخاب .

والى ذلك قوالب عن شواهد آرامية قد ترتقي الى القرن الثامن (؟) وُجدت في النيرب ، قريباً من حلب .

اما الفائدة من هذه القوالب فالدلالة على انتشار الابجدية الفنيقية شمالاً وجنوباً في القرنين التاسع والثامن ق. م.

ثم يرى الزائر قطعاً من ناووس يِشْمَعْل ، ملك جبيل ، في القرن السادس ق. م.

وقالباً يمثل شاهد الملك يحوملك ، الذي وُجد في جبيل ، بعد ذهاب رينان بقليل. ثم وُجد قطعة منه مؤخرًا فأضيفت الى الأصل . وهو يمثل يحوملك واقفاً

امام بعلة جبيل المصوّرة على شكل إيزيس-حاطور . ويشير النصّ الى الترميمات والزخارف التي امر الملك بعملها في هيكل الالاهة . والشاهد يرقى الى القرن الرابع ق. م.

وعلى الهيكل القريب من هذه الآثار احدث ما اكتشف من كتابة فنيقية ، ترقى الى القرن الثاني بعد المسيح ، وتنصّ بما يلي ، وفقاً لترجمة دوسو :

صنعتُ هياكل البخور هذه ، انا ،
عبد اشمون ، البنّاء ، ابن اسما ، من اجل
سيّدنا (الامبراطور) ومن اجل عقال
البعل (جوبيتر) فليبارك وليسرّه .

ترقى العلاقات بين الفنيقيين والمصريين الى ابعد العصور القديمة. فلا بدع ان يتأثّر الفنّ الفنيقي الاولي بالفنّ المصري ، كما تدلّ عليه النقوش القليلة التي وصلتنا من تلك الاحقاب السحيقة .

منها نقش اثر فيه تعاقب الأدهار ، يرقى ، على الارجح ، الى النصف الاول من الالف الثاني ق. م. ويمثّل ملك جبيل ، على شكل فرعون ، جاثياً على ركبتيه امام آلهة المدينة .

ومنها نقش آخر يمثّل شخصاً ، ويظهر على دائرة الحجر آثار مسامير تدلّ على ان النقش كان مغطّىً ، في القديم ، بصفيحة من المعدن .

اما في عصور الامبراطورية المصرية الوسطى فقد ازدادت هذه العلاقات بين البلدين وكثرت الشواهد المصرية في بلادنا . فحفظنا منها قطعة من شاهد باسم الفرعون تحوتمس . وهناك رعمسيس الثاني الذي ترك آثار مروره في عدلون وفي نهر الكلب، ناقشاً شواهد انتصاراته . وقد رمم، او بنى ، في جبيل أثرًا مهمًا حفر على بابه نقوش خاتمه . وكان من حسن الحظّ ان اكتشفت اقسام هذا الباب فحفظناها في الرواق الغربي .

وهنا نصل الى فراغ يمتدّ ، لسوء الحظّ ، على أزهى العصور في تاريخ فنيقية .

ولم تفدنا الحفريات ، التي لم تجر بطريقة منظمة بعد ، شيئاً مهماً من آثار ذاك العهد الزاهر الذي تسلط فيه الفنيقيون على بحار العالم المتمدّن اذ ذاك . ولعلّ لنا في ذمة الحفريات المقبلة ما يسدّ هذا الفراغ .

بيد ان العصر التالي ، عصر كان الفنيقيون يحاربون الى جنب الفرس متحدين ،

الرسم ٤ : ناووس اشمون عزر

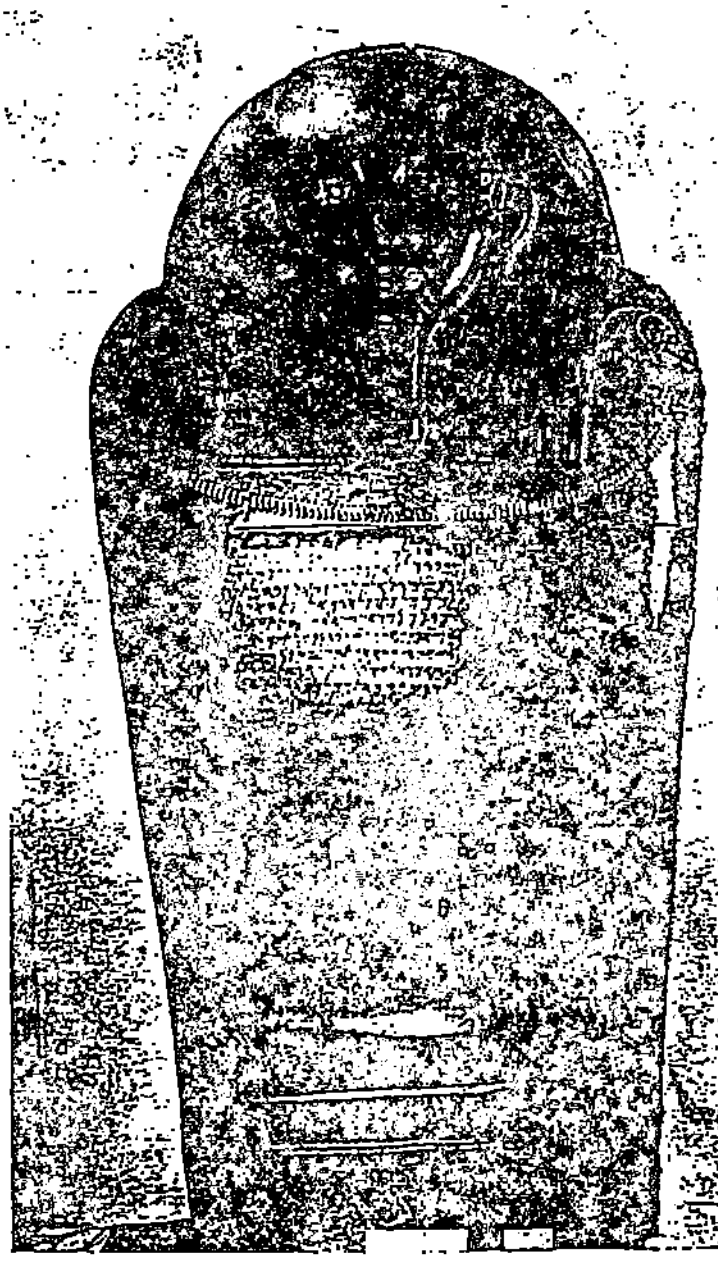

ظهر غنيًّا بآثاره المتنوّعة .

رافق ملك صيدون وامراؤها قيز الملك الأعظم في غزوته ارض الفراعنة . فعادوا منها مستفيدين مما رأوه في وادي النيل . حتى اذا احسّ تبنيت واشمون غزر يقرب الأجل ، تزعا لهما ناووسين مصريَّين من مقابر الفراعنة . (الرسم ٤)

الرسمان ٥ و٦ ناووس صيدوني من الرخام اليوناني

ولما كان الناس على دين ملوكهم ، اقبل سراة الصيدونيين يتخذون لانفسهم النواويس من الرخام اليوناني يحفرونها على شكل الهيئة البشرية ، مقلدين في ذلك نواويس ملوكهم ، متأثرين بتوابيت المومياءات المصرية . (الرسمان ٥ و٦)

اما علاقات الفنيقيين بمدن اليونان ، سواء أكانت علاقات حبية ام عدائية ، فقد ظهرت بالمادة المستعملة في نحت هذه النواويس ؛ اي الرخام اليوناني ، كما ظهرت في اسلوب نحت الرؤوس البشرية فيها . ومع ان الفنيقيين كانوا ، في اول امرهم من حلفاء فارس الّا انهم سرعان ما تأثروا بالادب والفنّ اليونانيين . وكان ما ساءهم في تصرّف مرازبة

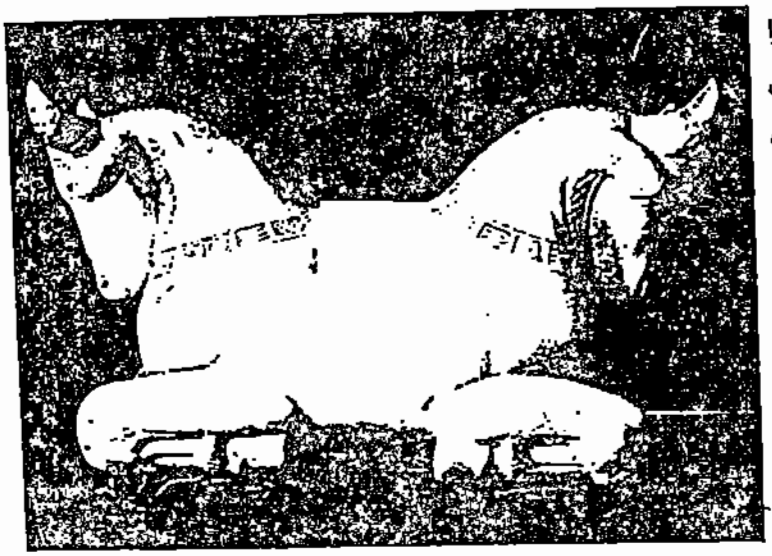

الرسان ٧ و٨ : تاج وقاعدة عمود في صيدون

الفرس فتاروا في القرن الرابع ، وهجموا على قصر الوالي الفارسي في صيدون ، فأخربوه . وظلت بقاياه المقطّعة من تيجان الاعمدة المكسّرة وقواعدها المهشّمة ، في مكانها حتى كشفت عنها الحفريات العصرية ، فنقل منها قاعدة وتاج الى متحفنا وعُرضتا في الصحن ، دالّتين على فخامة تلك الاعمدة التي كانت تتجاوز العشرة الامتار علوًّا . اما طراز الفنّ فيها فيشبه تاجها ما اكتُشف في شوشن . وهو يؤلّف من ثورين متدابِرَين . واما القاعدة فهي فنيقية محض باستدارتها المنتفخة . الّا ان زخارفها تذكّر بالزخرف الاشوري المعروف في كيوجيك . (الرسان ٧ و٨)

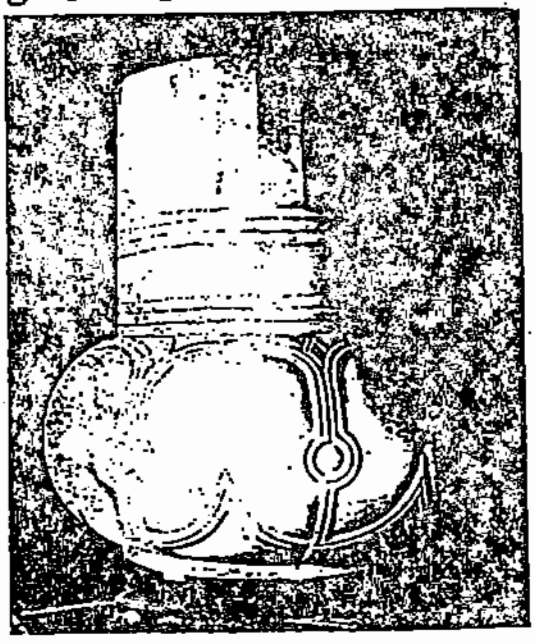

ومن هذا العصر نرى في جبيل اسماء عدد من الملوك الفنيقيين تظهر على قطع النقود . منهم ملك حكم في نحو السنة ٣٥٠ ق. م. اسمه عزبعل . وقد حفظ متحفنا ناووس امّه بتنُعم ، وعلى احدى جهاته الكتابة التالية :

في هذا الناووس ، انا بَتْنُعَمْ ، امّ
الملك عزبعل ، ملك جبيل ، ابن فلطبعل ،
كاهن البعلة ، استريح ؛ وعليّ ثوب
وبخفّرة ، وعلى فمي غطاء من الذهب ،
هكذا كما دفن الملوك قبلي .

رواق اشمون

ومن ميزات الرُقم العديدة التي وصلت الينا من العهد الفارسي انها توضح لنا شيئاً من عبادات الفنيقيين . من ذلك ان رقيم اشمون عزر يدلنا على تقوى هذا الملك ، وايمانه بالاله اشمون ، واحترامه هيكله . ولا تزال بقايا هذا الهيكل قائمة على ضفة الأَوَلي ، النهر الذي يسقي بساتين صيدا . وعلى الحجارة الضخمة التي يستند اليها جدار الساحة او فناء الهيكل ، رُقم فنيقية تفيدنا ما يلي :

الملك بُدْعَشْتَرْت ، ملك الصيدونيين ، حفيد
الملك اشمون عزر ، ملك الصيدونيين ، في صيدون
البحر ، شمين ، رومين ، ايريس رشافين ، صيدون
ميشال التي بناها ، وصيدون السهل ، بنى هذا
الهيكل لإلهه اشمون ، الامير القدس .

وكان هذا الاله - الإبن ، حارس المدينة وملوكها ، يُشرف من اعلى فناء الهيكل ، على مجرى يوستريس ، او الأَوَلي ، الموزّعة مياهه الخصب والازدهار على الاراضي الصيدونية . وكم من الشكاوى والآلام والآمال علقت تذكاراتها بجدران الهيكل ! وكم من الأسقام شفاها هذا الإله الذي عرف فيه اليونان المهم اسكولاب . وكان الناس ، في سبيل شفاء مرتجى ، او شكراً على شفاء سابق ، يقدّمون الى الاله تماثيل صغيرة من الرخام تمثل ابناءهم المرضى او الناقهين . وقد

وُجد حول الهيكل اربعة من هذه التماثيل ترقى الى العهد الهليني. وكل الاولاد الذين تمثلهم يتجهون الى ناحية واحدة ، كأنها ناحية تمثال الاله، موضوع إكرامهم.

ويظهر ، وسط الرواق ، تمثال مكتشف في جهة صيدون ، يرقى الى ما قبل عصر التماثيل السابقة ويمثل شخصاً يزين عنقه عقد ثمين متعدد اسماط اللؤلؤ. وعلى وسطه زنّار ينحدر على شكل حيّتين رشيقتين. ويده مزدانة بسوار ينتهي برأسي حيوان . نرى مجمل هذا التمثال متفعلًا بالتأثيرات المختلفة. فهو من ذاك العهد الذي بدأ فيه الأثر الاشوري يتضاءل ، بينما كان الأثر المصري لا يزال يقاوم الاثر اليوناني المتقدم تقدماً سريعاً . وقد اكتشف مثل هذا التمثال في الساحل الفنيقي ، وفي قبرص التي احتلّ الفنيقيون قسمها الشرقي مدة طويلة.

رواق جوبيتر

بعد فتوحات الاسكندر الكبير دخلت فنيقية وسورية في إطار العالم الهليني. فاصبح الشرق يعادل في مظاهر فنونه المدن اليونانية نفسها ، وكثيرًا ما كان يفوقها في فنّ تجميل المدن .

من آثار هذا الفنّ الهليني الرشيق تماثيل هيكل اشمون التي اشرنا اليها .

ثم قسمٌ اسفل من تمثال امرأة وُجد في طرابلس دقيق الصنع ، ولا سيما في تمثيل الثوب.

وامام هذا التمثال ، في الناحية الثانية ، من القسيفساء ، يرتفع التمثال الامبراطوري المدرّع ، المكتشف في بيروت ، والراقي الى القرن الثاني بعد المسيح.

وفي الإطار المسدّس تمثال جبّار نصفي ، يمثل جوبيتر قاعدًا ، وهو يرقى ايضاً الى القرن الثاني ب. م. ، ومن مكتشفات بيروت .

والى الحائط قطع من نواويس ترقى الى العهد الروماني. منها واحد من القرن الثاني للمسيح نُحتت عليه المتوفّاة ، بشعرها المتجعّد ، ممدّدة على ديوان ، امامها مائدة عليها اناء ، وبيضتا دجاج مع ملعقة صغيرة لتناول البيض . والى جنب المائدة خادمة مستعدّة لتلبية اوامر سيدتها . وتحت المائدة كلب ينتظر نصيبه من بقايا الطعام . (الرسم ٩)

وهناك قطعة من ناووس يرقى الى القرن الثالث للمسيح . يظهر فيه، تحت القناطر، ديدال يعدّ جناحاً لإيكار الذي وقف امامه ، وقد ألصق الجناح الاول بالشمع ، وبدا مستعدّاً لطيرانه ، ذاك الطيران الذي يوصله الى قرب الشمس حتى تذيب حرارتها شمع جناحيه فينحلّان ، ويسقط في اليمّ ضحية كبريائه الجريئة .

الفسيفساء

كان العهد اليوناني-الروماني عهد الفسيفساء الزاهر. نبغ فيها الفنانون والصنّاع الشرقيون نبوغاً عجيباً ، ففرشوا جدران المباني المهمّة ، والأبلطة ، بل ارصفة الشوارع ، بمشاهد الصيد ، ومناظر الطبيعة ، وبكثير من الحوادث المأخوذة من اساطير الميتولوجيا. وقد نال هذا الفنّ اوج ازدهاره في العصر البيزنطي .

ومن اشهر مظاهر الفسيفساء في المتحف لوحة تمثّل ، في إطار عريض رشيق التموّجات ، الاله باخوس مكللاً بورق من اللبلاب والكرمة. كانت هذه الفسيفساء تزيّن ممثل المسرح الروماني الصغير ، المكتشف في جبيل راقياً الى القرن الثاني بعد المسيح. (الرسم ٩)

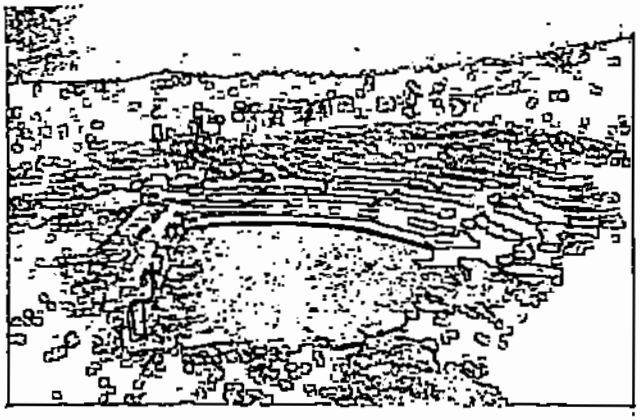

الرسم ١٠ : مسرح جبيل الروماني

وهناك قطعة اخرى تمثّل اربعة مشاهد من مغامرات جوبيتر. يظهر الاله في احداها ، الى اليسار ، على شكل بجع بجانب ليدا. وتحت هذا الشكل يظهر جوبيتر على شكل عقاب يختطف الفتى غانيد . والى اليمين تظهر الاميرة دانايه، وقد سجنها ابوها ، فوصل اليها جوبيتر على شكل رذاذ من الذهب. وفوق ذلك

يبدو جوبيتر مع الكسينا . ترقى هذه الفسيفسا. الى اواخر القرن الثالث ، وقد اكتشفت في بيروت ، شارع جورج بيكو.

يلي ذلك فسيفسا. بيزنطية من القرن الخامس . تمثل الراعي الصالح ، حوله ماشية عديدة. وقد نجح الفنّان في تمثيل رشاقة الحركات، وجلال الوقفة. وكانت هذه الفسيفسا. تزين الردهة المهمّة في قصر بيزنطي كان يقوم في الجناح ، من ضواحي بيروت . وكان فيه ١٤ غرفة تحيط بفنا. لا سقف له . وكانت ارض القصر باجمها مفروشة بقطع الفسيفسا. التي يحتوي متحفنا على اجمالها .

رواق بيريتيس

في وسط الرواق ، وقيم كبير الحجم من اثر رفعه في بيروت ، هيرودس الكبير. ثم رتمه ورسّمه بيريتيس وهيرودس اغريبا الثاني . والمعروف ان اسرة هيرودس ، المالكة في اليهودية وبلاد الجليل ، قامت ، في سبيل التقرّب الى امبراطرة الرومان ، بتزيين بيروت بعدد من البنايات العامّة ، وبميدان لسبق الخيل .

يلي ذلك عدة شواهد مصوّرة ، من العهد الروماني ، رُفعت في سبيل غاية مدفنية. يمثل اجملها امرأة متوفاة اسمها فيلومين متمددة الى مائدة تتناول الطعام ، والى جنبها خادمة تحرّك مروحة .

وهناك ناووس ولد اكتشف في بيروت ، ومُثّل على احدى جنباته الولد واقفاً امام مؤدّبه ، ووالديه . وعلى جانب صغير صورة اله الحبّ يحمل في يده مشعلاً مقلوباً ، وفي اليد الثانية اكليلاً من الزهور المعروفة بالخالدة. وعلى الجهة الكبرى الثانية ، ظهر الولد يلعب مع آلهة الحبّ في ارض الجنة . واخيرًا ، على الجانب الرابع مثل الولد على شكل هرقل ، حاملاً مطرقته ، مشتملاً بجلد الأسد ، منتصرًا على جميع العقبات التي قامت في سبيله .

الإنشاد

او

الفنّ الاصيل في الأدب الجاهليّ

بقلم فؤاد افرام البستاني ، استاذ الآداب العربيّة في جامعة القديس يوسف

مادّة المحاضرة الاولى من محاضرات « معهد الآداب الشرقية » للسنة ١٩٦٠-١٩٦١ في قرء « الادب العربي »

لقد قادنا التجوال في السنوات السبع الاخيرة الى عواصم الآداب العربية ؛ من دمشق عاصمة الادب الاموي ، الى بغداد عاصمة الأدب العبّاسي[1] ، الى حلب عاصمة الادب الحمداني ، الى القاهرة عاصمة الادب الفاطمي ، الى قرطبة واشبيلية وغرناطة عواصم الادب الاندلسي ، الى بيروت عاصمة النهضة ، الى مضارب الجاهلية مهد الادب العربي الأصيل.

و كان انتباهنا خاصّة ، في تلك الجولة الاولى ، لمظاهر الحياة الاجتماعية والثقافية من حيث مجاريها العامّة وخصائصها المميّزة.

فآن لنا أن نباشر اليوم ، في سلسلة جديدة ، درس صرح الادب القائم في تلك الأوساط المتنوّعة . نقف على آساسه مدةً ، ثم نرقى طبقاته ومشارفه درجةً درجة ، فنقدر ما فيه من قوّة وجمال.

وها اننا نعيد التجوال في سبيل غير السبيل الاول ، لكنه مستنير به ، متمّم له ، يقودنا الى درس فنون الأدب عصرًا عصرًا ، منذ اقدم اصولها الى زمننا الحاضر ؛ مكتفين ، هذه السنة ، بمحاولة درس الفنون المذكورة في العصر الجاهلي.

---

(١) نشرنا ، من هذه السلسلة ، مادّة اربع محاضرات ، في المشرق ٣٢ [١٩٣٤] ٦٥-١٠٨ ، ٤٠١-٤٤٠

ولنبدأ بدرس الفنّ الاصيل في كلّ أدب ، لا عند العرب وحدهم ، بل كما يبدو لنا عند سائر الشعوب ، كذلك ، ولا سيما الساميّة ، في عصورها الجاهليّة او الابتدائيّة . ولا بدّ من القول اننا نستعمل كلمة « الجاهليّة » ، لا للدلالة على الجهل ، بل اشارةً الى عصر لم تكن فيه الكتابة تُتّخذ لتدوين مولّدات الفكر البشري . فنفهم بالشعوب « الجاهلية » الشعوب ذات الثقافة الشفهية ، مهما يبلغ من تبحرها في المدنية ، كالفنيقيين في ايام ملاحم راس شمرا ، واليونان على عهد هوميروس ، والعبرانيين زمنَ انبياء اسرائيل ، والعرب في عصر اصحاب المعلّقات والنبي .

اما هذا الفنّ الاصيل فاننا ندعوه « بالانشاد » . وهي لفظة قديمة في نشأتها ، حديثة في مدلولها ، فضّلناها على غيرها من اوضاع الفنون الادبية المتداوَلة ، لئلا يحصل الالتباس بين هذه الفنون — وكلّها من مواضعات عصر الأدب الكتابي — ومظاهر ذاك الفنّ الاصيل في عصر الادب الشفهي ، موضوع محاولاتنا اليوم . حتى اذا تمّت هذه المحاولات وضحت مظاهر هذا الفنّ الشفهي ، فوضح معنى الإنشاد .

واما طريقتنا في هذه المحاولات فمستندة الى أُسَين :

١ — أسّ نفساني تشترك فيه الشعوب عامّة .[1]

٢ — أسّ تاريخي نبني عليه بالنظر الى العرب خاصّة .

١) تقدّم لنا نظرات سريعة في الدلالة على هذا الفنّ الاصيل ، في «المشرق» ٣٠ [١٩٣٢] ٣٧١ - ٣٨٨ ، بعنوان «حول الشعر الجاهلي : آراء وملاحظات في الإنشاد» ؛ ثم في «المكشوف» السنة الثانية : العدد ٤٣ ، و٤٤ ؛ ٥ و١٢ نيسان ١٩٣٦ ؛ واخيراً في الروائع ٢ : الشعر الجاهلي (الطبعة الثانية ، ١٩٣٨) : ١٠ - ٢٥ . وقد اشرنا الى ما كان من فضل ، في هذه الدروس النفسيّة - اللغويّة ، الاب مرسيل جوس اليسوعي ، الذي سبق علماء النفسانيات واللغويين جميعاً الى ابحاث عميقة في نفسيات الشعوب الجاهلية ، وما يوافقها من قوالب الكلام في عهد بداوتها ، وما يظهر في ادبها الشفهي من صلة متينة بين الفكر والتعبير وحركة الاعضاء . فكان كتابه في « الإنشاء الشفهي » أساً لهذا العلم الجديد بما تضمّنه من ملاحظات وايحاءات وافرة الغنى ، وبما اثاره من ضجّة في عالم الادب والفلسفة والعلوم الكتابية . فتتابعت الابحاث والنقود ، منه وعليه ، في صحف فرنسة ، ولا نزالها متتبعةً قريباً . وقد استندنا في هذا القسم النفساني من درسنا الى الكتاب المذكور ، والى ما ظهر حوله من الابحاث ، وهذه أهمّها :

١

الاسس النفساني

١ ــ الانشاء البدوي او المحاكاة

ليسأل الواحد منا جارَه عن معنى الحركة اللولبيّة مثلاً ، او عن كيفيّة الصعود الى المئذنة بسُلّم لولبيّة الشكل ؟ او ليطلب منه تحديد الكومة ، كومة من التراب او من الرمل . ولينتبه لحركات المسؤول في جوابه . فيتحقّق ان هذا المسؤول ، قبل ان تنفرج شفتاه عن اللفظ ، يأتي بحركة غير مقصودة ، يندفع اليها سليقةً في التفتيش عن إخراج تصوّراته . هي حركة فطرية تعبّر في ذهنه عن الفكرة التي يرمي الى شرحها . واذا بيده ترتفع وتستدير ، او تلتفّ ، سابقةً نبرات صوته . هو يستعمل يده في التعبير قبل ان يستعمل لسانه . يستعمل يده ، ثم يرمي الى استعمال سائر جوارحه ، فيعبّر بكل جسمه . وقد يخونه اللفظ فيتركه لاجئاً الى هذه الحركات العَضَليّة . وكم ، بين معارفنا واصدقائنا ،

Marcel Jousse, *Etudes de psychologie linguistique. Le style oral rythmique et mnémotechnique chez les Verbo-moteurs.* [*Archives de Philosophie*, vol. II, cahier IV]. Paris, Beauchesne, 1925.

Marcel Jousse, *Etudes sur la psychologie du geste.* Les Rabbis d'Israël, *Les Récitatifs rythmiques parallèles* ; I, *Genre de la Maxime.* Paris, Spes, 1930.

Léonce de Grandmaison, *Le style oral. En marge d'un mémoire de psychologie linguistique.* [*Etudes*, 183, 1925, p. 685-705].

Gaston Fessard, *Une nouvelle psychologie du langage. Le style oral, du P. Marcel Jousse.* [*Etudes*, 192, 1927, p. 145-162].

Frédéric Lefèvre, *Un grand initiateur. Le R. P. Marcel Jousse et la nouvelle psychologie du langage*, [*Lettres*, juin, 1927].

Paul Léonard, *Pour le retour à la vie*, I. [*Etudes*, 197, 1928, p. 418-432].

Les Philalèthes, *Le style oral dans l'Evangile.* [*La vie Intellectuelle*, 2e année, 15 juin 1929].

من الذين يبدأون جملهم بالكلمات وينهونها بالإشارات، المتنوّعة فتأتي تعابيرهم ابلغ واروع وقعاً !

هذه الحركة هي اول تعبير بليغ استخدمه الانسان في الأداء عن رغباته وميوله . واذا فلم يخطىء من قال :

« في البدء كانت الحركة ! »[1]

وليست هذه الحركة الا مظهراً من مظاهر التقليد البشري ؛ بل هي المحاكاة الاصيلة في طبيعتنا أصالة رغباتنا في التمثيل والإخراج . وقديماً قال ارسطو عن الانسان « انه اكثر الحيوانات محاكاةً ».

يلجأ الرجل فطرياً الى المحاكاة كلما شعر بالحاجة الى التعبير . فيمثل ، بحركاته المختلفة ، ما يتمثل له من هيئة الشيء المعبّر عنه ، مهتماً ، لا بمظاهر هذا الشيء جميعها ، بل بما يؤثر فيه خاصة من شكل بارز او هيئة فارقة ، مستعيناً بيده اولاً على محاكاة السلّم اللولبيّة مثلاً في دورانها والتفافها ، او الكومة الرمليّة في ارتفاعها واستدارتها.

ومن الدلائل على اصالة هذه المحاكاة في طبيعتنا البشرية اننا لا نزال نُدفع اليها اليوم ، في محاولاتنا التعبيرية ، على رغم انفعالنا ، منذ القرون العديدة ، في عصر الادب الكتابي.

وهو ما يشعر به كلّ كاتب ، اذا ما عمد الى وصف معركة من المعارك قديمة كانت او حديثة ، فتصوّر احتدامها ، وتتبع مظاهر تطوّراتها ، وهو الى مكتبه على اتمّ ما يكون من الراحة والطمأنينة . يباشر الوصف هادئاً مستكناً ، حتى اذا اندفع به الخيال ، شعر بعضلات كفّه تدفع قلمه الى الهياج والاضطراب ، بل شعر ، اذا ما حمي الوطيس ، بعضلات رجليه وسائر جسمه تضطرب كلها امام المكتب .

واذا وصف رجلاً غدّاراً دسّاساً فاسد الأخلاق ، دُفع الى المحاكاة نفسها ،

---

(1) D'Udine, *L'art et le geste*, p. 86 ; cité dans Jousse, *le style oral*, p. 3

على غير قصد منه ، فأحسّ بعضلات شفتيه ومنخريه تتقلّص علامة الاشمئزاز . حتى لو كان امامه آلة تدوّن هيئات وجهه ونبضات جسمه المتتابعة — اي حركاته كلّها — لكان له سلسلة من التعابير عن العواطف المتناوبة قد تكون ابلغ مما دوّنه قلمه من شعر او نثر .

أوَ ليست من هذه المحاكاة لغة الخرس المتفاهمين بالحركات ؟

وتلك الشعوب الابتدائيّة الباقية على جاهليّتها في عصرنا هذا ، كبعض هنود اميركة واقوام افريقية الوسطى ، أوَ لا تظلّ تستند ، في تفاهمها ، الى الحركات خاصّةً ؟ وذلك لقلّة مفرداتها وضعف اساليب التعبير في لهجاتها .

وقد روى الرحّالة عن الاسكيمو انّهم يضطرّون ، اذا ما تحادثوا في الليل ، الى ايقاد النار ، كي يتفاهموا مستعينين بالحركات على ضآلة قوالبهم التعبيريّة .

ولمْ نبعد في التمثيل على هذا الأمر الواقع ؟ أوَ لم نكن نفهم ، لسنوات خلت ، وقائع الأفلام السينمائيّة الصامتة بالانتباه للحركات وحدها ؟

أوَ ليس هذا نصيب مَن يحضر السينما اليوم ، وهو على جهل باللغة التي يتحاور بها الممثلون ، ولا يحسن قراءة تلك الترجمات المسوخة التي تتبرّع بها ادارات السينما على هامش الفلم او في أسفله ؟

لا شكّ انه يفوته الكثير من دقائق التعبير ، ومن اساليب اللعبة بين الوقائع . ولكنه لا يأبه لهذا . انما همّه الفكرة الاجماليّة ، ومطلبه التأثير الجمهوري ، وهما حاصلان له بالحركات على شكل لا يتبدّد ولا يتفرّع بتعداد المعاني الثنوية والدقائق التعبيرية . فمثله في هذا مثل الانسان الابتدائي ، او الجاهلي الفطري ، تهمّه الافكار المتكتّلة او الصور المجتمعة للمعاني ، فيتناولها ، او يعبّر عنها ، قافزًا فوق ما تحوكه حولها نواميس التعبير الكتابي من روابط ولواحق بالادوات والحروف ؛ بل مثله مثل الطفل يستند في تعبيره الى الاسماء وحدها غير عابئ بروابطها من الحروف والادوات ، بل غير متصوّر وجود هذه الروابط . فيقول مثلًا : « ابي راح سوق » . فيَفهم ، ويُفهم ، مستعينًا ، فوق ذلك ، بحركاته واشاراته ، مقلّدًا كلّ مَن يرى وما يرى . هو الطفل يقلّد ابويه اوّلًا .

وهو الشعب الطفل يقلّد صغارُه كبارَه .

ومن هذا القبيل تقليد الطلّاب اساتذتهم . وقد يكون مقصوداً في اول الأمر على سبيل التفكهة والتظرّف . الّا ان كثيراً ما يؤدّي الى تقليد فعّال في تعابيرهم واساليب تفكيرهم ، فيصبحون صورا متعدّدة لاساتذتهم .

وكم واحدٍ منّا ، اذا ذهب به الاعجاب بشخص ما ، رأيناه ، وقد اصبح يقلّد بعض اشاراته بل نبرة صوته او محطّات كلامه ، على غير علمٍ منه !

أوَ لم يرَ بعضهم عن الاستاذ شارل دِيهل ، العالم بالشؤون البيزنطيّة ، مَن انفق السنوات العديدة منكبّاً على درس نقود بيزنطية وايقوناتها ، ونقد صحيحها وزائفها ، والتعليق على تنوّع مظاهرها ، انه اصبح ، في شيخوخته ، وفي قسمات وجهه وتلاميحه ما يشبه المثال البيزنطي الذي قضى حياته متأمّلاً فيه .

فثبت اذاً ان المحاكاة لا تنحصر بالحركة اليدويّة وحدها ، بل تشمل جميع اعضاء الجسم وعضلاته ، المنظور منها وغير المنظور .

ولنتقدّم خطوةً في وصف تفرّع هذه المحاكاة من اشارة اليد الى اللفظة ، وهي حركة عضلية كذلك ، الى الجملة المنطقية المتناسقة .

لنفرض ان واحداً منّا وضع جمرةً حارّة على يد جاره . فما عسى ان يكون موقف هذا الجار في الردّ عليه ؟

يمكنه ان يلجأ الى اسلوبٍ من اربعة :

١ ــ إمّا ان يسحب يده بسرعة رامياً الجمرة ، مكتفياً بهذه الحركة .

٢ ــ وإمّا ان يقرنها بصوت صارخ معبّر يقطع واحد عن الألم والغضب ، دون الاستعانة بالكلام ذي المعنى اللغوي .

٣ ــ وإمّا ان يطر جاره بسيل من الشتائم الشعريّة يتفنّن فيها ما شاء شعوره وخياله .

٤ ــ وإمّا ان يخاطبه بجملة منطقية هادئة رصينة كأن يقول له مثلاً : ألا ترى ، يا صاح ، انّ النار عنصر يحرق ما ألمّ به ؟ ثم الا تراك وضعت هذه النار على يدي ، فكان لا بدّ انها تحرقني وتؤلمني .

هكذا تتطوّر طرق التعبير في الشعب المرتقي شيئاً فشيئاً من مجاهل الحياة الابتدائيّة الطفلة ، الى المجتمع الجاهلي ، الشفهيّ الثقافة ، الى العصر الكتابي في الادب.

ولنلاحظ ان الحركة وحدها كانت كافية ، في الحالة الاولى ، للتخلّص من الألم . وأنّ واحدًا من الاساليب الثلاثة التالية لا يكتفي بنفسه ، ولا يستغني عن الحركة . انما هو يسندها ، ويتوسّع حولها ، قليلًا او كثيرًا ، في طرق التعبير ومظاهر البلاغة.

وبعد هذا ألم يُصب مَن اخرج هذه الحقيقة إخراجاً حسيًا اجماليًا فقال : « يفكّر الانسان لأن له يدًا »؟ [1] يدًا تولّد الحركة الاساسيّة ، فتثير سائر الحركات ، وتصل على تحقيق الفكرة باللفظ . وما اللفظة الّا حركة الحلقوم ، وحركة عضلات الجهاز التنفسي ، واخيرًا حركة اللسان والشفتين.

ثم لا تلبث هذه الحركة التعبيرية — التي تتعاون في توليدها عضلات الجسم جميعها — ان تتخذ شكلًا موزونًا يقرّبها من النغم . والنغم اصيلٌ كذلك في الطبيعة البشرية . فتبدو وكأنها تتأرجح وتتمايل في موجات متّزنة . حتى يصحّ لنا ان نضيف كلمة الى ما تحققناه سابقًا ، فنقول :

« في البدء كانت الحركة المتّزنة. »[2]

واذا تناسقت هذه الحركات المتعاونة في سبيل التعبير ، ونظّمها النغم المتّزن بإيقاع الصوت واليد والرجل وسائر عضلات الجسم ، فتسارقت كلّها الى الغاية المقصودة ، ارتفع هذا الاسلوب الابتدائي الى نوع من التعبير سامٍ ، وافر البلاغة ، عميق التأثير ، الّا وهو الرقص المعهود لدى جميع الشعوب في التعبير عن فرحها ، او حزنها ، او عباداتها المتنوّعة.

ولا بدّ لهذا الرقص من اناشيد تتبع ليّاته متساوقة ، فتنتظم بها ، وتسندها في التعبير عن بعض المعاني الآخذة بشيء من التجرّد والمعقولات.

---

(١) Cité dans Fessard, *loc. cit.*, p. 149

(٢) Jousse, *op. cit.*, p. 20

وقد تستغني هذه التعابير عن مظاهر الرقص ، بما فيها من مولّدات الخيال ، و إيقاعات النغم الموسيقي محتفظة بآثار الانشاء اليدوي من حركات وايماءات . فيتصل الشعب بمظهر جديد للتعبير ، هو الانشاء الشفهي او الإنشاد.

ب — الانشاء الشفهي او الإنشاد

١ — تمهيد

ولا بدّ لنا قبل محاولة هذا الدرس ، وتفصيل عناصر الإنشاد وتطوّر مظاهره ، من كلمة تمهيديّة عن أثر الحركة الاصيلة في الكتابة ، وفي تكوين مفردات اللغة :

كثيرًا ما نعتقد ان الاقدمين ، اوّلَ ما حاولوا الكتابة ، اخذوا يرسمون صور ما يقع تحت عيونهم من الاشياء . على ان الحقيقة مباينة بعض الشيء لهذا الاعتقاد . انهم لم يصوّروا الاشياء ، بل صوّروا حركاتهم التي كانوا يعبّرون بها عن الاشياء . لم يصوّروا الشمس في إشعاعاتها ومنافعها العميمة ، ولا الحيّة في صفاتها الجوهرية . انما صوّروا حركة ايديهم التي كانوا يعبّرون بها عن الشمس في استدارتها ، وعن الحية في انسيابها . وهكذا كانت كتابتهم لا تصويرًا للاشياء بحدّ ذاتها ، بل تصويرًا لحركاتهم المقلّدة اشكالَ تلك الاشياء .

ولا يخفى ان الفكرة ما كانت لتنفصل في البدء عن الحركة المولّدة لها . وهكذا اصبحت هذه الصورة الشكليّة ، مدوّنةُ الحركة ، تدوّن كذلك المقطعَ الصوتيَّ الذي كان يعبّر به المتكلّم عن الشيء المقصود ، مستندًا الى الحركة .

فالصورة اذًا وليدة العمل المشترك بين الانشاء اليدوي والانشاء الشفهي . تأخذ من الأول الحركة الممثلة شكلَ الشيء ، ومن الثاني المقطعَ الصوتي ، او اللفظة ، الدالّة ، مع الحركة ، على الشيء المذكور . فلو اخذنا رسم «الدائرة» في التصوير الهيروغليفي مثلًا لرأيناها تحتوي على عنصرين اساسيّين :

١ : تحتد أوّلًا بالخطّ ، شكل تلك الحركة المستديرة التي كانت يد المصري تكوّنها في الهواء للدلالة على قرص الشمس .

٢ : وتدوّن ثانياً ذاك المقطع الصوتي الذي كان يلفظه المصري ، اذ تقوم يده بالحركة المستديرة ، مشيرًا الى الشمس بعينها ؛ وهو مقطع « رَعْ » الذي اصبح اسماً للكوكب المشعّ المنير.

وليس من شكّ في ان الصلة كانت متينةً بين الشكل والصوت اي بين الصورة والاسم ، صلة لا نكاد نتخيلها اليوم ، وقد تناسينا اصل الأشكال ، فاصبحنا نعتقد ان هذه الخطوط الابجدية انما مثّلت الاصوات اعتباطاً واتفاقاً بين المصطلحين عليها.

واننا لنفهم هذا الأمر ، اذا ما قارنّاه بموقف الطفل الصغير من اهله . اذ يتناول الكلمات المتنوّعة فيظنّ انها وُضعت جزافاً للمعاني التي تعبّر عنها. ولكنه كلّما تقدّم في فهم اللغة ، فتعمّق في درس اصولها واشتقاقاتها ، ادرك ان هذه المفردات تخزن تاريخ أمّته بأسره ، ماديًّا كان او روحيًّا ، وانها لم تصل الى هذا الجمود الحرفي الّا في العهد الكتابي الاخير ، بعد ان كانت في الاصل حيّةً نابضة تمثّل حركات حيّة.

❧

ويقودنا هذا الى كلمة في المقابلة بين مدلول « اللغة » في عصرنا الكتابي ، وما كانت عليه « اللغة » في اصلها الشفهي . فنقول :

نعلم اليوم ، مؤمنين ، ونعلّم ، غير هيّابين ، ان اللغة تستند الى اصول ثلاثة :

١ ــ مفردات محدّدة المعنى.

٢ ــ قواعد تنظّم احوال المفردات في التعبير ، والتعابير في الجمل.

٣ ــ نظريّات ادبية تسنّ القوانين في فنون النثر والنظم.

ولكن هل يحقّ لنا ان نعرض هذه المبادئ ، التي تقرّها في عصر الادب الكتابي ، على العصور جميعها ، فنجعلها حقائق لا جدال فيها ؟

مفردات ، تعابير ، نظم ، نثر . كلّها مقياسات اقرّها عصر الكتابة. وذلك انه لم يكن بدٌّ للنحويّين واللغويّين من موادّ خارجيّة يُعملون فيها اساليب الترتيب والتفصيل ، متبسطين في نظريّاتهم التجريديّة.

ولما كان الكلام الشفهي حيًّا طيّارًا لا يقع في متناول يدهم ، رأيناهم

يندفعون في تجديده بالكتابة، متتبعين مواده جميعها يرتبونها ، وينسقونها فئات، وطبقات ، وصنوفاً ، وانواعاً . فيجمعون المؤتلف ويفرّعون المختلف ، ويعددون النواميس والقوانين، والقواعد شاملين بعنايتهم الظاهرة حتى الشوارد والشواذات؛ متنازعين اصولها وفروعها بين الصرف ، والنحو ، والبيان ، واللغة . وهم على حق ، شرطَ الّا يتجاوزوا مظاهر الآداب المكتوبة.

اما في العصر الشفهي فتخطئ مقاييسهم الهدف . ومهما يبلغ من استقراب النحويين ، ومن تردیدهم ، لاثنين نجمى الألفية :

كلامنا لفظ مفيد كاستقم : اسمٌ ، وفعلٌ ، ثم حرف للكلِم ،

فاننا نقول : ليست اللفظة مادة الكلام الاولى في عصر الادب الشفهي. في الانشاء اليدوي - الشفهي الاصيل لا اسم ، ولا فعل ، ولا حرف . انما هي حركة ، اشارة ، ايماء.

وفي كل حركة او إشارة يقوم بها الخطيب اليدوي او الشفهي تظهر المعاني الثلاثة الاساسيّة في كلّ تعبير : العامل ، العمل ، المعمول. وهي التي اصبحت ، في نظر التفكير الغراماطيقي ، محور الصرف والنحو : الفاعل ، الفعل ، المفعول.

ولمعترض ان يقول : والاسماء العينية التي اطلقها الانسان ، منذ القدم ، على الاشياء فميّزها بعضها عن بعض ؟

فنجيب ان هذه الاسماء نفسها تؤيّد ما ذهبنا اليه :

لم يطلق الانسان جُزافاً هذه الاسماء على مسمياتها . انما نظر فيها الى حركتها الخاصة او علامتها الفارقة — لا في عنصرها او جوهرها الذاتي — بل في مظهرها الخارجي ، في اشارتها الحسية ، فسماها بهذه الصفة . واذا باقدم الاسماء صفات مشتقة ، فاعلة او منفعلة ، مما لا يخرج عن المعاني الثلاثة المذكورة . وان من ميزات اللغة العربيّة ان تقودنا الى فهم هذا السرّ الاصيل في مظاهر التعبير بأسرع مما تقوم به غيرها ، لفضل قدمها ، واحتفاظها بالمدلولات القديمة لمفرداتها المشتقة.

وها نحن نعبّر ، في هذه اللغة ، عن اجناس العصافير والعقبان وما بينهما ،

باسم «الطائر» ، بل بصفة «الطائر» ؛ اي بالحركة الفاعلة . وكذلك ترانا نسمي السيف «الصارم» ، و«الماضي» ، و«القاطع» ، و«البتار» . . . وندل على الناقة «بالراحلة المرقال» . وبعد مرور القرون المتعاقبة على اخذنا بالادب الكتابي ، ألا نزال نعود الى الاصل الشفهي ، في يقظتنا الابتدائية في القرن العشرين ، فنسمي الاوتوموبيل بصفة حركته «السيارة» ؟ وهكذا القول عن «الغواصة» ، و«الطيارة» ، و«الحاكي» ، و«الهاتف»[1]

هي آثار الإرث الشفهي القديم التي صبغت مظاهر التعبير السامي جميعها في عهد الآداب الإنشادية ، فرأينا ملاحم راس شمرا تسمي الاله «راكب الغيوم» ، كما شهدنا ملاحم العبرانيين تمثل السمكة والطائر «العائم في الماء» و«السابح في الهواء».

وهذا الشعر الجاهلي لا نكاد نرى فيه اسماء الأعيان الا بصفاتها . فلا نقع — الا في النادر النادر — على اسم السيف ، والرمح ، والحربة ، والناقة ، والحصان ، والجمل . اما الصفات فعديدة لا قياس ولا ضابط لتنوعها وابتكارها سوى الهيئة التي يظهر بها الشيء الموصوف في حركته واشارته لعين الواصف ، لا لذهنه او عقله.[2]

فاذا شاء الجاهلي القديم ان يعبّر عن لحاق الفرس بالحيوانات الوحشية ، قال: السابح او المكرّ المفرّ المقبل المدبر ضابط الأوابد . . . — وكأنها اسماء فاعل تمثل الحركات وحدها . وهو سرّ الجمال في قول امرئ القيس : «قيد الأوابد.»

---

١) ولعلّ اعضاء المجمع اللغوي المصري جروا على هذه الخطة الابتدائية ، في تعيينهم الناس اسماء الكائنات الحديثة ، فانتبهوا خاصّة الى الحركة الخارجية في المسمّى . ولكنهم قلّما توفقوا الى شيء صالح في ذلك . وهم يقترحون مثلاً لنسبة القطار العادي ، وقيمته من الاكسپرس السريع ، صفة «الوقّاف» ، لانه يقف في المحطّات . وحينئذ يقول الناس الاحتجاج بان الحركة الغالبة في هيئة القطار المذكور ، او الصفة المميّزة ، ليست الوقوف . . . (راجع «البشير» في ٢٦ حزيران ١٩٣٧)

٢) وهذا ما دفع بعض علماء العصر الكتابي الى الاعتقاد بالترادف في الاسماء العربية القديمة . وهم معذورون في ذلك ، بعد ان غابت عنهم صور الحركات التي تمثلها الجاهليون الشفهيون في الاسماء ، الصفات التي اطلقوها على مسمّياتهم الحسّية.

« المكرّ قيد الأوابد .»

إشارة حسّية معنوية تتضمّن في الحقيقة ثلاث إشارات — ونقول اليوم : ثلاث فِكَر — : الكرّ او السرعة ، التقييد ، وحسّية الحيوانات . على ان هذه الفكر (بصيغة المصادر) تبدو مجرّدة ، بينما كانت الاولى حسّية حيّة بحركتها.

واذا خرج الاسم من تصوير هذه الحركة الحيّة عبّر في اول امره عن المعاني المحسوسة.

ثم تمرّ عليه الايام ، فتتقدّم البيئة في مذاهب الحضارة ، واذا له وجهان : وجهه المحسوس الاول ،

ووجه منحرف عن الحسّ حتى يعلق بالمعقولات.

ولنأخذ صفة « الحازم » مثلًا : فهو اولًا حازم حزام الدابّة او حبلها ، او رابط الحمل على الدابّة ، ثم ضابط الامور ، العاقل . والعاقل نفسه أليس معناه اصلًا رابط الحبل على يد البعير ؛ ومنه اشتقّ العقل « الذي يعقل (اي يربط) صاحبه عن المعاصي.»

أوَ ليس كذلك في التفرّع من الاصل الحسّي: « العدل » من تعادل عديلتي الحمل ؟ و « الإنصاف » من اعطاء النصف ؟ و« السبب » ، وهو في اصله الحبل ، ثم الواسطة الى الشيء تشبيهاً بالسبب - الحبل الذي يتوصّل به الى قعر البئر فيُستخرج ماؤها . و« الجريرة » ، ما يجرّه الانسان وراءه من أثر مادّي ثم أُطلق على التبعة التي تنال الانسان من جرّاء عمله ... وهكذا في المفردات القديمة جميعها .

ولا تنفرد العربية بهذه الظاهرة اللغوية . انما تشارك فيها سائر اللغات ، ولا سيما القديمة ، الّا انها تفوقها جميعاً في الدلالة عليها وفي ظهور الأصل المحسوس من قوالبها الشفّافة ، لما امتازت به من سهولة الاشتقاق في بناء مفرداتها ، والّا انها لم تتعرّض كغيرها من اللغات الحديثة للتطوّرات العصريّة ، واصطناع المفردات الدخيلة.

هذا الأثر الحسّي في نشأة المفردات واشتقاقاتها نجـده كذلك في التعبير القديم وما جرى مجراه . والادلّة عليه اوفر من ان تُذكر . . . لم يكن العرب القدماء يقولون عن اعدائهم : «هربوا» ، بل كانوا يمثّلون حركة الهرب بقولهم: «ولّوا الأدبار» . . .

كما ان عامّتنا ، من ارباب التعبير الشفهي ، لا يقولون عن عودة الانسان المخفق في عمله ، انه رجع خائباً خاسراً مجرّدًا حتى من ثيابه ، بل يمثّلون حركته في تلك الحيبة ، قائلين: « رجع إيد من خلف وإيد من قدّام. »

أيّ أدلّ من هذه الصور الحسّية على تمثيل الحركات ؟

واذا فان اساليب التشبيه من أساس التعبير الشفهي . وغاية التشبيه ، في دلالته القديمة ، ان يقرّب المعنى الى افهام الحاضرين بواسطة الصورة المحسوسة الناتجة من حركة المشبَّه به او من هيئته.

اما تشبيه المحسوس بالمعقول ، او تشبيه المعقول بالمعقول ، فمن تجريدات البيانيين في عصر الادب الكتابي . ولا يخفى أن الجاهلي الشفهي لا يشبه النور بالعلم ، ولا الجبال بالرزانة والوقار . انما هو يستعمل الضدّ ، اذا ما لجأ الى التشبيه.

هذه تمهيدات ضرورية لتفهّم « الإنشاد » : عناصره ، وأساليبه ، وانواعه عند الشعوب الساميّة عامّة ، وعند العرب زمنَ جاهليتهم خاصّة.

اما تحديد « الإنشاد » بعناصره ومظاهره فهو ما سنحاوله في بحث مقبل.

معهد الآداب الشرقية

في السنة الاولى من السنة الدراسية ١٩٤٠ــ١٩٤١

فرع التاريخ والاثريات

في سورية وفنيقية

افتتح المعهد دورته الدراسية هذه السنة في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٤٠ بمحاضرة ألقاها الاب رينه موترد اليسوعي ، مدير المعهد ، موضوعها « الأسرة في سورية وفنيقية على العهد اليوناني - الروماني » فصّل فيها ، مستندًا الى النصوص ، والرقم ، والآثار التصويرية ، احوال الاسرة الرومانيّة ، فالاسرة السورية المتأثرة بها في ذاك العصر ، في مظاهرها المختلفة ، من زواج ، وولادة ، وموت ، واستعباد ، وتعليم اولاد ، وما الى ذلك من فروع وتشعبات تتعلّق بالاجتماع والثقافة .

ثم خصّ محاضرة ثانية (٢٧ تشرين الثاني) بالارض ، والعمل . جاب فيها اطراف سورية سهولها وجبالها ، دالاً على انواع المزروعات والمحاصيل المتنوّعة التي كانت تُستخرج منها اذ ذاك ، وفي طليعتها القمح الرفيع الجنس المصدَّر حتى رومة نفسها ، وكثير من الفواكه الممتازة . ثم ذكر الغابات والاحراج المتكاثرة في ذاك العهد ، وما كان من عمل السلطة على تحديدها وحمايتها ، خاصاً القسم الاخير بمظاهر الاعمال الصناعية والتجارية التي كان يقوم بها الناس ، وبما يتضح من صفات هذه الاعمال من حيث العلاقات بين العُمّال والمديرين واصحاب رؤوس الاموال .

وقد تابع الاب موترد التمارين العمليّة للطلّاب المقيدين كل ثلاثاء في الساعة الحادية عشرة وفقاً للمنهاج المقرَّر .

فرع الادب العربي

اما محاضرات الادب العربي فقد بدأها الاستاذ فؤاد فرام البستاني ، نهار الخميس في ٥ كانون الاول . وألقى ثلاثاً منها في موضوع « الإنشاد » او الفن الاصيل في الادب الجاهلي . ننشرها اولاها في هذا الجزء مختصة بمظاهر الانشاء اليدوي ، وهو اول ما يلجأ اليه الانسان في التعبير عن تصوّراته . وسننشر ما تبقّى في العدد المقبل متناولاً عناصر الانشاد وتطوّراته حتى عصر الانشاء الكتابي .

دراسة فقه اللغة العربية والالسنية

الغاية من انشاء هذا الفرع في المعهد التوفر على درس اللغة العربية درساً يماشي دراسة اللغات التي تقدمت وفقاً للمنهج العلمي الحديث . والمسألة تقوم على امرين :

الاول الاطلاع على التراث الواسع الذي خلّفه لنا لغويّو العرب ، والثاني تمحيصه على ضوء العلم الحديث لنبذ ما خلق منه والاحتفاظ بما حسن ، ثم اكمال ما نقص بقدر ما تسمح به الظروف . لذلك كان من الضروري بسط المنهج العلمي ، ثم عرض القوانين العامة التي استخلصها العلماء من البحث في اللغات وذكر الفروع التي تنطوي عليها دراسة اللغات . وقد جعلنا برنامج هذه الدراسة مؤلفاً من ثلاثة اجزاء تتساند وتكوّن وحدة مفيدة : وهي مبادئ علم الالسنية ، وعلم الاصوات مع تطبيقها على اللغة العربية ، ثم قراءة بعض الكتب العربية الشهيرة .

افتتح هذه الدراسات الاب يوسف عظم اليسوعي ، في ١٠ كانون الاول ، بالقاء نظرة شاملة على تاريخ الالسنية منذ اواخر القرن الثامن عشر واوائل التاسع عشر الى ايامنا ، مع ذكر التطورات التي حدثت في هذا العلم عندما اخذ العلماء يطبقون عليه قوانين العلوم الطبيعية . وسنلخص محاضرات تبيّن ما هي مقوّمات اللغات ، وما هي العناصر العاملة على الجمود فيها او على التطور ، الى

آخر ما هنالك من المعلومات الاكيدة التي تعطينا فكرة صحيحة عن اللغات، والتي يكون لها عظيم الفائدة لفهم اللغة العربية نفسها.

الفرع اللاتيني

يُعيّن منهاج هذا الفرع عدداً من المؤلفين يُفرض على الطلاب ان يتعمّقوا في درسهم فيحكموا الاحكام الشخصية في قيمتهم استناداً الى موازنة آثارهم بطريقة متتابعة. ولا بدّ في هذا من القيام بالترجمات من اللاتينية الى الفرنسية وبالعكس. وهو اهمّ ما اشتغل به الفرع في الثلث الاول من هذه السنة. هذا الى ما تمرّن عليه الطلاب من نقد النصوص لغةً وتركيباً وادباً، بمعاونة الاستاذ اندري ميها، مهتمين خاصةً بمؤلفَين من المعيّنة اسماؤهم في منهاج الليسانس، هما: تاسيت في الكتاب الثالث عشر من حولياته، وڤرجيل في النشيد التاسع من الانياذة.

وقد حاول الطلاب ان يكتشفوا من خلال النصوص فنّ الاديب وشخصيته. فوقفوا على قوّة التعبير في انشاء تاسيت ولا سيما في تحديد رسومه البارز كما في رسم لنيرون، او أغريپين، او غيرهما، تلك القوّة التي كثيراً ما اقترنت بالشعور الفاجع. اما ڤرجيل فاوفر غنًى بشاعريته المتجدّدة دائماً سواء أتلدت القدماء، ام ولّدت الموضوعات الجديدة، فهي مبتكرة في الحالين.

وسيتناول الدرس في القسم الثاني من السنة شيشرون وجوڤينال.

فرع الشؤون الارمنية

خصّ الاب جان مخيريان اليسوعي درسه الأول (٢٤ تشرين الثاني) بكاتب مغمور هو المونسنيور كاركين سروانتزدياتز، وذلك بمناسبة مرور مائة سنة على ولادته. كان رحّالةً جال مدة عشرين سنة (١٨٦٠–١٨٨٠) في مناطق ارمينية

الروسية والارمينية التركية ، فوصف مشاهداته ، وجمع كل ما اتصل به من حكايات ، واساطير ، وانانشيد ملحمية مروية او مغناة ، مؤسساً بذلك علم درس الاساطير في ارمينية .

ثم انتقل الاب مصيريان الى القاء اربعة دروس (٢٦ تشرين الثاني ، ٣ ، ١٠ ، ١٧ كانون الاول) في موضوع تمهيدي تناول الابحاث الارمنية :

درس مركز ارمينية في آسية الغربية من حيث الجغرافية والعناصر البشرية ، مبيناً ان البطحاء الارمنية المتراوح علوها بين ١٦٠٠ و١٨٠٠ متر ، والتي دعاها بعض المؤلفين « الجزيرة الجبلية » او « القلعة » تمثل في آسية الغربية — بمدل اصغر بالطبع — ما تمثله هضبة بامير في آسية الوسطى .

اما من حيث اختلاف العناصر فقد أتت الرُّقُم الحثية المكتشفة في بوغاز كوي بشيء من التوضيح في ما خصّ اصول الشعب الارمني . فأيدت ، في أكثرها ، ما كان معروفاً بواسطة المصادر الايرانية ، والاشورية ، واليونانية ، والرومانية ، من ان الشعب الارمني نتيجة امتزاجات بين شعوب عديدة اهمها شعبان كانا في اصله وهما : قبيلة اسيوية اسمها « هاي » ، وقبيلة هندية-اوربية اسمها « أرمن » اتت ارمينية عن طريق تراقية والاناضول .

وكان يؤيد هذه الاقوال بعرض عدد من الخرائط الجغرافية ، ورسوم المكتشفات الاثرية .

الأضحية والاديان

ألحق بدروس معهد الآداب الشرقية ، هذه السنة ، سلسلة من ست محاضرات في موضوع الاضحية او الذبيحة ، ألقيت من ٢٩ تشرين الثاني الى ١٣ كانون الاول :

تناولت الاولى منها ، وقد ألقاها الاب كابيلو اليسوعي ، علاقة الذبيحة بالدين ، على الاطلاق .

ثم عرض الاب دي لانترسن اليسوعي ، لصفة الذبيحة : هل هي مجرّد حماقة بشرية ام انها تدلّ على تفتيش دائب ، وان مضطرباً ضالاً بعض الأحيان ، عن طريقة في تكريم الألوهة .

بعد ذلك انتقل البحث الى درس الذبيحة : عند مختلف الشعوب . فتكلم الاب ري-هيرم عن الذبائح في العصور اليونانية القديمة .

ووصف الاب ستاركي الذبيحة عند اليهود .

وفضل الاب شدياق اليسوعي طقوس الذبيحة ، او التضحية في الإسلام ، كما تظهر في العقيدة القرآنية ، وفي التقليد البارز في شعائر الحجّ .

حتى كان الكلام للاب اسكولا اليسوعي فاستخلص نتائج الابحاث ، وقام بمحاولة في شرح هذه الظاهرة .

مطبوعات جديدة

PUBLICATIONS DE LA SOCIÉTÉ DES NATIONS

منشورات جامعة الأمم

*** Le commerce international de certaines matières premières et denrées alimentaires par pays d'origine et de consommations, 1938.** Vol. in-4° de 178 pp., Prix : 6 fr. suisses. Genève, 1941.

التجارة الدولية المتناولة بعض المواد الاولية والغذائية سنة ١٩٣٨

نشرت هذا الكتاب دائرة الدروس الاقتصادية في جامعة الأمم ، ومثلت فيه حركة التجارة الدولية مدة السنة ١٩٣٨ ، في ما خصّ بعض المواد الأولية والغذائية ، مرتّبةً ذلك بالنظر الى البلدان المصدّرة ، والى مناطق الاستهلاك . جامعةً احصائيات موقّتة للسنة ١٩٣٨ ، واحصائيات محقّقة مضبوطة للسنتين ١٩٣٦ و١٩٣٧ . وقد تناول الموضوع ٣٨ بضاعة منها القمح ، والسكّر ، والكاوتشوك ، والخشب في مظاهره المتنوّعة ، والجلود ، والصوف ، والقطن ، والحرير ، والحديد ، والفولاذ ، والنحاس ، والبترول . موزّعة على ١٢٥ بلدًا مستوردًا ؛ بينما البلدان المستوردة المدروسة لم تكن في المجلد السابق سوى ٤٢ . ولهذا صحّ القول ان المجلّد الحاضر يمثّل التجارة العالمية للبضائع المذكورة لان البلاد التي يدرسها تعادل تجارتها ٩٨ ٪ من مجموع التجارة العالميّة .

وغاية الكتاب ان يدلّ على الموارد التي تستقي منها البلاد ما تحتاج اليه من موادّ اوليّة وغذائيّة . وهو ما لا تقوم به الاحصائيّات التجارية الخاصة التي تنشرها الدول مستقلّةً ، لانها كثيرًا ما لا تشير الى مصدر البضائع المستوردَة ، وقد تكتفي بالاشارة الى البلد الوسيط ، بائع البضائع او ناقلها ، بدل ان تشير الى البلد مولّد البضاعة ومصدّرها .

ولهذا رأت جامعة الامم ، لستّ سنوات خلت ، ان تطلب من الدول ان تقوم باحصائيّات خاصّة تشير الى البلاد المصدّرة اصلاً لهذه الموادّ التي تهتمّ امرها. فكان من ذلك هذا الكتاب التي تمكّن من انالتنا فكرة عامّة عن حركة التجارة المذكورة .

اما البضائع والموادّ المحصاة فتبلغ ٣٨ كما تقدّمنا ، اختارتها لجنة خاصّة من الخبراء ألفتها جامعة الأمم ، واستندت ، في اختيارها ، الى اهمية هذه الموادّ في الحياة الدولية ومن ثمّ في التجارة العالمية .

❖ Statistiques du commerce international, 1938. Vol. in-4° de 345 pp. Genève, 1939.

احصائيات التجارة الدولية في السنة ١٩٣٨

يتناول هذا المجلد احصائيّات عامّة للتجارة مدة السنة ١٩٣٨ في ٦٧ دولة هي: ألبانية ، الجزائر ، المانية ، الارجنتين ، اوسترالية ، النمسة ، بلجيكة ، برمانية ، بوليڤية ، البرازيل ، بلغارية ، كندة ، سيلان ، شيلي ، الصين ، كولومبية ، كوستاريكا ، كوبا ، الدانمارك ، الجمهورية الدومنيكية ، مصر ، الاكوادور ، اسبانية ، استونية ، الولايات المتحدة ، فنلندة ، فرنسة ، اليونان ، غواتيمالا ، هايتي ، هوندوراس ، المجر ، الهند ، الهند الهولندية ، العراق ، ايران ، ارلندة ، ايطالية ، اليابان ، ليتونية ، ليتوانية ، ماليزية البريطانية ، المكسيك ، نيكاراغوا ، نيجيرية ، نروج ، زيلندة الجديدة ، پناما ، پاراغواي ، هولاندة ، پيرو ، الفيليپين ، پولونية ، البرتغال ، رومانية ، بريطانية العظمى ، سلڤادور ، سيام او تايلاند ، اسوج ، سويسرة ، تشيكوسارڤاكية ، تركية ، الاتحاد السوڤيتي ، الاتحاد الافريقي الجنوبي ، اوروغواي ، ڤنزويلا ، يوغوسلافية .

ثم رُتّبت الاحصائيات وفقاً لأصناف البضائع ، ووزنها وقيمتها ، بالنظر الى البلاد المصدّرة والبلاد المستوردة ، مما جعل الكتاب افضل وثيقة لدرس الحركة التجارية سنة ١٩٣٨ بلا منازع.

* Matières premières et denrées alimentaires. Production par pays 1935 et 1938. Vol. in-4° de 75 pp. Genève, 1939. Prix : fr. s. 2,50.

المواد الاولية والمحصولات الغذائية

لم يسبق للعلماء ان فتشوا بما تعهده لهم اليوم من مثابرة واجتهاد عن مصادر المواد الاولية ومناطق الغلال والمحصولات الغذائية . فلا عجب ان تهتم جامعة الأمم بهذا الأمر وتعرض لاولئك العلماء مجلدًا ، بل مجموعة من الجداول تفضل على اوضح سبيل معلومات لم يكن ليتوصل اليها طالبها ، قبل اليوم ، الا بشق النفس منفقًا الساعات ، بل الايام ، في مقابلة الجداول والسعي وراء الاحصائيات المتنوعة . واذا بها كلها في متناول يده تفصل محاصيل العالم من مواد اولية وغلال بلدًا بلدًا ومادة مادة ، في السنتين ١٩٣٥ و١٩٣٨ . وقد شملت الجداول ١٤٠ بلدًا ونحو ٢٠٠ مادة او بضاعة رُتبت على طريقة ظهرت فيها مجمل محصولات البلد في صفحة واحدة . واحتوت ، فوق ذلك ، ارقام الصادرات والواردات لكل بلد دالة بلمحة سريعة على موقف البلد المذكور من المواد المعهودة ، هل هو قادر على كفاية نفسه أم مضطر الى استقدام هذه البضائع الضرورية من السوق العالمية ، ام يمكنه اغناء هذه السوق بما يعرضه من فضل حاجته .

ويُضاف الى كل هذا جدول عام باهم مصادر المواد الأولية ، رُتبت فيه اسماء اهم البلدان مصدرة المواد المهمة ، على نوع تناول ٨٠ ٪ من مجموع المحصول العالمي . وقد ذُكر الى جنب ذلك معدل محصول كل بلد بالنسبة الى المحصول العالمي .

وفي جدول آخر أشير الى نصيب كل قارة من محصول المواد الاساسية في العالم .

كل هذا قُدم عليه بحث ضروري ليفهم المطالع طرق الاستفادة من الجداول ، فيأمن العثرات ، ويتحفظ في استخلاص النتائج السريعة التي قد يقع فيها من يلجأ الى الاحصائيات على غير خبرة .

ولا شك في ان مصلحة الدروس الاقتصادية في جامعة الامم أدّت خدمة جليلة ، بوضعها هذه الآلة المرنة ، لجميع من تهتم شؤون التجارة والاقتصاد في العالم ، سواء أكانوا من رجال العلم ام من ارباب السياسة .

* L'Habitation urbaine et rurale. Vol. in-8° de 176 pp. Genève, 1939. Prix : fr. s. 3,50.

سكنى المدن وسكنى الأرياف

وهذا المجلّد من منشورات مصلحة الدروس الاقتصاديّة ، عرضت فيه بالتفصيل ما قامت به بعض الدول من اساليب في تحسين حالة المساكن ، منتبهة للنفقات المبذولة في هذا السبيل ، وللنتائج التي توصّلت اليها الدول المذكورة . وهو درس وافر الاهميّة لما يطلعنا عليه من محاولات في حلّ مشاكل السكن الناشئة بين السنتين ١٩١٨ و١٩٣٩ اي بين الحربين الكبريين . فلا بدّ اذًا من ان يلفت نظر جميع من يهتمّ امر التفكير بانشاءات وبنايات جديدة في الحاضر او في المستقبل .

وقد اهتمّ الكتاب خاصّة بدرس الحالة الحاضرة في البلدان التالية : بلجيكة ، انكلترة ، كندة ، الدانمرك ، فنلندة ، فرنسة ، نروج ، هولندة ، اسوج ، الولايات المتحدة . وكان المؤلف قد زار اكثر هذه البلدان بنفسه ، درس فيها المشاكل العمليّة التي تجابهها الحكومات ، فرتّب معلومات الحكومات الرسميّة الى معلومات البلديّات ، الى ما استفاده من المصادر الخاصّة . وخصّ كل دولة بفصل على طريقة تظهر فيها المعلومات سهلة المقابلة بها في غير ذلك من الفصول ، فيستطيع المطالع التنقّل السريع من دولة الى دولة ، فالمقابلة بين المشاكل والحلول التي تنفرد بها كل دولة من غيرها ، مع اقرارهنّ جميعاً بضرورة تحسين حالة المساكن البشريّة .

ومما يجدر بالذكر ما يتحقّقه المطالع من حركة صناعة البناء في مختلف المناطق ، ومظاهر التقدّم في تصميم البنايات منذ السنة ١٩٢٠ . كل ذلك يدرسه المؤلف في مظهرَيه : المظهر الاجتماعي ، اي كيف عملت السلطات على حلّ المشكل السكني الذي تفرضه حالة الحياة الحاضرة ، والمظهر الفنّي الصناعي .

وقد زاد ، في درسه للمناطق الاوربية ، فصلًا خاصًّا بمشكلة المساكن الريفية ، وما تقوم به الحكومات من اعمال في تحسين سكنى الفلّاح وعمّال

وهناك فصل عامّ يلخّص مشكل السكنى بمظهريه المهمّين وهي : ١ً قلة المساكن . ٢ً عجز اكثرها عن القيام بالشروط الصحية من حيث المرافق ، والاتساع لراحة مَن يسكنها . . . وهو يدرس في القسم الاول اسباب النقص الطارئ في اعمال البناء من حين الى آخر . وفي الثاني ، يبيّن ان سبب الصعوبات ارتفاع أكلاف البناء بالنسبة لمدخول بعض الطبقات .

* Annuaire statistique de la Société des Nations, 1939-1940. In-8°, 285 pp. Genève, 1940. Prix : 10 fr. s.

الدليل الإحصائي لجامعة الامم ١٩٣٩—١٩٤٠

على رغم الحوادث العالمية الحاضرة ، تتابع امانة السرّ لدى جامعة الأمم اعمالها العلمية الاختصاصية . ومن ادلّ الشواهد على هذا الأمر ظهور هذا الدليل الجديد الذي يتناول حالة العالم حتى السنة ١٩٤٠ ، فيعدّد الاحصائيّات الدقيقة في عصر غدا فيه الانسان على اشدّ ما يمكن من الرغبة في الاطّلاع السريع على المعلومات الصحيحة ، بعيدًا عن تأثير الدعاوات والاحصائيّات المغرضة . فكان هذا الدليل الذي تتناول احصائيّاته المضبوطة حتى السنة ١٩٣٩ ، بل حتى النصف الاول من السنة ١٩٤٠ ، كثيرًا من المرضوعات ، في بلاد العالم جميعها . ومما يدلّ على اهتمامه بأحدث المظاهر انه لم يغفل الإشارة الى التغيير الجغرافي الحاصل في بعض المناطق ، والى الاحكام المالية والنقدية المتخذة بعد ابتداء الحرب الحاضرة .

ولمّا كانت المشاكل العنصرية في طليعة هموم العالم اليوم ، رأينا الاحصائيّات العنصرية والبشرية تتسع شيئاً فشيئاً في هذا الدليل متناولة ، لا حالة السكان الحاضرة في مختلف بلدان العالم فقط ، بل حركات تطوّرها ومظاهر مراميها ايضاً .

ومما يجدر بالذكر ان مصلحة الدروس الاقتصادية في جامعة الامم تخمّن سكان العالم في آخر السنة ١٩٣٨ بـ ٢,١٤٥,٠٠٠,٠٠٠ منهم ٤٥٠ مليوناً في الصين . وقد أجرى احصائيّات رسمية مؤخرًا ثلاث من كبار الدول : روسية ، والولايات المتحدة ، والمانية . فكانت النتيجة ان عدد سكان الجمهوريات الروسية

السوفيتية بلغ في كانون الثاني ١٩٣٩ نحو ١٧٠ مليوناً ونصف مليون ؛ وعدد سكان الولايات المتحدة بلغ في نيسان ١٩٤٠ ، نحو ١٣١,٤٠٠,٠٠٠ . اما سكان الريخ الالماني فكانوا في ايار ١٩٣٩ نحو ٧٩,٧٠٠,٠٠٠ ولا يتضمن هذا الرقم الاخير سكان « محمية بوهيمية وموراقية » البالغين ٧ ملايين ، ولا العشرة الملايين ونصف المليون من سكان البلدان الملحقة بالريخ منذ ابتداء الحرب .

نذكر ايضاً من ملاحظات الدليل ان حركة الولادات في المانية تابعت صعودها بالغة في السنة ١٩٣٩ ، في ارض الريخ القديم ، معدل ٢٠,٣ بالألف بينما كانت لا تتجاوز ١٤,٧ بالألف سنة ١٩٣٣ . وهي في النمسة ٢٠,٩٠٠٪ (وكانت ١٢,٨ سنة ١٩٣٧) ، وفي مناطق السوديت ٢١,٩٠٠٪ . وقد هبطت هذه الحركة ، في السنة ١٩٣٩ ، في الولايات المتحدة ، والدانمرك ، والمجر ، والبلاد البلقانية . وارتفعت في الاتحاد الافريقي الجنوبي ، وارقيانية ، وأسوج ، ونروج . اما حركة الوفيات فقد اتصفت بهبوط عامّ لا مثيل له في ما سبق من هذا الجيل . وهكذا نجد ان تقدّم الطرق الصحيّة وحسن المعيشة يحفظ الملايين من النفوس البشرية سنةً فسنة .

وهناك تقدّم صاعد في المحاصيل الصناعية بدت مظاهره في بعض البلدان من منتصف السنة ١٩٣٨ وتتابعت حتى ابتداء المعارك . ومن اهمّ البلاد التي تتابعت فيها هذه الحركة ، في النصف الثاني من السنة ١٩٣٨ ، الولايات المتحدة وكندة . وان تكن احصائيّات الاتحاد الجمهوري السوفيتي عرضة للاضطراب وعدم التناسب احياناً ، فان التقدّم المهمّ في المحصولات الصناعية ، وفي بعض المحصولات الزراعية ، يظهر واضحاً لا شكّ فيه . ولا سيما في محاصيل القطن ، والكتّان ، والشاي ، والسكّر ، والحرير ، والفحم ، والفوسفات ، وبعض المعادن والفلزات ، والآلات ذات المحرّكات وقد نتج ان الاتحاد الجمهوري السوفيتي يحتلّ المركز العالمي الأوّل في ما خصّ انتاج الحبوب ، وسكّر الشمندر ، والكتان ، والقنب ، والمانغانيزة ؛ ويحتلّ مركزاً مهماً في انتاج الحبوب الدهنية ، والقطن ، والكحول ، والبترول ، والفحم ، والحديد ، والفولاذ ، والذهب .

وكان من شأن هذا التقدّم المتواصل في الانتاج الصناعي ، وقد ساعدته

سياسة خاصّة ، ان يستبدل ببعض المحاصيل منتجات جديدة. وهكذا رأينا انتاج الكاوتشوك الصناعي في ألمانية يبلغ في السنة ١٩٣٩ من ٢٠ الى ٢٥ الف طنّ ، بينما يبلغ انتاج الكاوتشوك الطبيعي في العالم كلّه ١,٢٠٠,٠٠٠ طنّ . ورأينا البنزول ، والكحول ، وسائر انواع البترول الصناعي تحلّ بعض الاحيان محلّ مولّدات البترول الطبيعي. وكذلك القول عن الصناعات النسجيّة فاننا نشهد فيها تطوّرًا اشبه بالثورة منذ عشر سنوات. فبينما نرى انتاج الحرير الطبيعي يقلّ سنة فسنة ، نتحقق ان انتاج الخيوط الاصطناعية يصعد ، في هذه المدّة ، من ٢٨٠٠ طنّ الى ٤٩٠,٠٠٠ طنّ .

وفي الكتاب لمحة خاصّة على تاريخ العملة وتداولها في السنوات الاخيرة . يُستدلّ منها سعة المراقبة التي اخذت الحكومات ، ما عدا الولايات المتحدة ، تفرضها على جميع اعمال القطع. وقد تبع ذلك صعود في النفقات العامّة . وصعود كذلك في مبالغ الديون العمومية ولا سيما الداخلية منها . فقد صعدت الديون العمومية الداخلية غير الثابتة في ألمانية من ٦ مليارات ونصف المليار من المركات في اذار ١٩٣٩ ، الى ٢٣ مليار في حزيران ١٩٤٠. اما مجموع هذه الديون الداخلية فارتقى من ٢٩ مليارًا ونصف المليار الى اكثر من ٥٥ مليارًا. وفي انكلترة ارتفع مجموع الديون من ٧,٢ مليارات الى ٧,٩ مليارات من الليرات. وكذلك القول عن الديون الداخلية في الولايات المتحدة التي ارتفعت بين حزيران ١٩٣٩ وحزيران ١٩٤٠ من ٤٠,٤ مليارًا الى ٤٣ مليارًا من الدولارات ؛ وارتفعت ديون اسوج من ٢,٦ مليارًا الى ٣,٦ مليارات من الكورون. اما ديون اليابان فتضاعفت تقريباً من اذار ١٩٣٨ الى اذار ١٩٤٠ . .

وتدلّ حركة التداول بالعملة على ميل نحو الارتفاع في جميع البلدان تقريباً.

* Monnaies et Banques, 1939-1940. Vol. I. Aperçu de la situation monétaire. Vol. in-8°. 112 pp. Genève, 1940. Prix : fr. s. 3.

العملة والمصارف : لمحة في الحالة النقدية

يختص لمحة هذه السنة ، التي نشرتها مؤخّرًا دائرة الدروس الاقتصادية في جامعة الأمم ، بعرض الأحكام والقوانين المختلفة التي سنّتها الدول ، منذ

ايلول ١٩٣٩ ، في سبيل مراقبة اعمال القطع ، والاحتياط للقيام بالاعتمادات الطارئة جملةً ، وبما يُحتاج اليه من اوراق النقد والقطع المعدنية خاصّةً ، وبما قد تعمد اليه الحكومات من اللجوء الى القروض . ثم يدرس المجلد الحاضر تأثير هذه العوامل كلّها في مبلغ العملة ، ونفقات الاعتماد .

يتناول الفصل الاول الاضطرابات في اسعار القطع ، ثم يقوم بتحليل عامّ لمظاهر النقص في المدفوعات الخارجيّة ، وفي تحويل الرساميل ، تلك المظاهر التي فرضتها حالة الحرب . اما الفصل الثاني فموضوعه القوانين والاحكام المطبّقة مدة الحرب على المصارف ، واعمال البورصة ، ومظاهر التأجيل وسائر التسهيلات في الاعتماد ، وطرق اصدار عملة جديدة ، وما الى ذلك من تعديلات في شرائع المصارف المركزية الماسّة بحظر الإصدار .

يأتي بعد ذلك فصل يبحث في مالية الحرب والسوق النقدية ، فيصف طرق القروض التي تلجأ اليها الحكومات في كثير من البلدان ، متوقفاً لدى الدور المهمّ الذي تمثله المصارف المركزية والتجارية في المساهمة بنفقات الدولة .

وفي الفصل الرابع اشارة الى اتساع كميّة النقود في العالم ، وما نتج عن ذلك من اتساع الضمانة . وفيه ملحق اضافي يلخّص بعض الاحكام النقدية المتخذة مؤخرًا في تشيكوسلوفاكية ، ودانتزيغ ، وبولونية .

يلي ذلك ما عهدناه في النشرات السابقة من جداول بالاحصائيّات النقدية الدوليّة معروضة بشكل يسهّل المقابلة بينها جميعاً .

ولا يقلّ هذا المجلّد في شيء عمّا نعرفه في المجلّدات السابقة سواء بالنظر الى عدد البلدان المدروسة ام بتنوّع المواضيع . وفيه ، فوق ذلك ، مقابلات جمّة بين الحالة الظاهرة هذه السنة وما كانت عليه في السنة ١٩١٤ .

ولا شكّ في ان هذا الكتاب يستحقّ الوصف الذي اطلق عليه من انه « دليل امين لحالة الماليّة الدوليّة » واذًا فلا يستغني عنه كل من يهمّه الاطّلاع على التقلّبات والتغييرات التي احدثتها الحرب في حالة النقد العالميّة .

في التراجم

Bernard Arnoudru, Ignace de Loyola, maitre d'héroïsme. [*Idéalistes et Animateurs*, 19]. Vol. 19×12, 208 pp. Paris, Bonne Presse, 1939. Prix : 10 fr.

اغناطيوس دي لويولا ، استاذ البطولة

لم ينتش مؤلف هذه الترجمة الحديثة للقديس اغناطيوس دي لويولا عن مصادر جديدة يستقيها ، واين ذلك ؟ ولم يحاول كذلك ان يغير في الصورة التي تركها لنا مترجمو القديس السابقون . على انه بالاستناد الى ما تقدم ، وبتلخيص تلك المعلومات الكثيرة ، امكنه ان يأتينا بكتاب رشيق طافح بالحياة والحركة . وهو ما يمدح عليه . ب. م.

Mgr Millot, Monseigneur Gibier, précurseur de l'Action Catholique. [*Idéalistes et Animateurs*, 20]. Vol. 19×12, 208 pp Paris, Bonne Presse, 1939. Prix : 10 fr.

المونسنيور جبيه ، السابق الى فكرة العمل الكاثوليكي

لجأ الطابعون الى حرف صغير وطبع ملزوز حتى امكنهم ان يدخلوا ، في هذا المجلد الصغير ، كلّ ما شاء المونسنيور ميلو ان يقوله عن ذاك الذي كان « اول خوارنة فرنسة » قبل ان يصبح من افضل اساقفة عصره. ومن النادر ان نرى حياةً كهذه مثلت في جميع اطوارها واعمالها المثال الأعلى للرسول الحقّ الذي لا يقتصد في وقف عقله وقلبه ووقته على خدمة القريب ، وخير المجتمع ، وخلاص النفوس . حياة طافحة بالمبرّات يعزّزها التفاني والجهاد الثابت المرتّب في سبيل الغاية المثلى . ب. م.

Claude Aragonnès, Madame Louis XIV, Françoise d'Aubigné, Marquise de Maintenon. [*Idéalistes et Animateurs*, 17]. Vol. 19×12, 200 pp. Paris, Bonne Presse, 1934. Prix : 10 fr.

المركيزة دي مانتنون امرأة لويس الرابع عشر

هي شخصية غريبة شخصية فرنسواز دوبينيه ، تلك التي قضت طفولة بعيدة عن مظاهر النعمة والترف ، فتزوّجت ، في زواج اول ، من سكارون ، ذاك الشاعر

المضحك اللهي المشوّه المظهر ، ثم اصبحت امرأة « الملك-الشمس » دون ان تُصبح ملكة . يدرس المؤلّف هذه الشخصية مظهراً خاصّة ، ما اتصفت به من صفات سامية كالحكمة والشجاعة والرصانة ، التي كانت تعجب لويس الرابع عشر وفي ذلك عبر مفيدة لعصرنا هذا المتقلقل المضطرب . ب. م.

PIERRE BELPERRON, Neville Chambarlain. Vol. in-8°, 96 pp. Paris, Plon, 1938. Prix: 3 fr. 50.

نيفيل تشمبرلن

ظهر هذا الكتاب بُعيد مقابلة مونيخ ، فدلّ على ما طفح به قلب العالم من فرح شامل بسلام ظنّه دائماً ، بعد تلك المخاطر على ان سوء الحظّ شاء ان يكون الفرح وقتيّاً والسلام زائلاً. وانه ، وان يكن التاريخ لم يتراجع التراجع الكافي فيسمح لأربابه بان يقدروا عمل الرجل السياسي ، فان هذا المجلّد اللطيف كافٍ لإظهار شخصية تشمبرلن ، فساعدة التاريخ على عمله .

ب. م.

LEON LEYDER, Le Roi Albert. Vol. in-8°, 96 pp. Paris, Plon, 1938. Prix : 3 fr. 50.

الملك ألبير

اما شخصية الملك ألبير فقد دخلت في التاريخ محاطةً بمظاهر الكرامة والمجد. وهو ما يظهر في هذا الكتاب ، وان يكن المؤلّف يلخّص الكثير من معلوماته ، فيكاد يكتفي باعمال « الملك-الجندي » مدة الحرب الماضية ، وهي وحدها كافية لرفع تلك الشخصية الى مصافّ الابطال . ثم ان اسلوب الكتاب يجعل منه قراءة لذيذة جذّابة. ب. م.

IIII

ERNESTINE LE COUTURIER, Ce que dirait Saint François de Sales aux jeunes filles d'aujourd'hui. Vol. in-12, 144 pp. Paris, Bonne Presse, Prix : 9 fr.

ما قد يقول القديس فرنسيس سالس لفتيات اليوم

يبدأ هذا المجلّد اللطيف سلسلة جديدة عنوانها: « ما قد يقول... » تظهر فيها موافقةً لروح العصر ، معروضةً باسلوب رشيق ، حافلةً ببعض الشروح

والتعاليق ، اقوالٌ منتخبة من آثار الآباء وكبار المفكرين من الكاثوليك . ولم يكن افضل من ان تُبدأ باقوال القديس فرنسيس سالس الذي لم تهرم تعاليمه وحكمه . وسيتذوق المطالعون ، والمطالعات ، دون شك ما فيها من لطف ، ودقة ، وحياة ، وجرأة .

Abbé Thomas Moreux, Mon curé chez les savants. Vol. in-12, 220 pp. Paris, Bonne Presse. Prix : 15 fr.

خوريٌّ عند العلماء

طالما سمع القرّاء بمؤلفات الاب مورو العلمية . وها انه يتناول في هذا الكتاب ، على طريقة كليمان ڤوتيل ، كثيرًا من المشاكل العلمية فيعرضها على احد الخوارنة الذي ينتقل به الى محيط العلماء ، فيناقش الاطباء والجيولوجيين وغيرهم ، بلطف ، ورشاقة ، مبيناً لهم ان ليس شيء من هذه المكتشفات يتعارض والعقيدة الكاثوليكية . كل ذلك باسلوب حيّ يرضي المطالعين جميعاً .

ب . م .

Chanoine V. Leroquais, Un livre d'heures de Jean-Sans-Peur, Duc de Bourgogne (1404-1419). Grand in-8°, 74 pp., 16 planches. Paris, Georges Andrieux, Expert. 1939.

سواعية « جان سان پور » ، امير مقاطعة برغونية (١٤٠٤-١٤١٩)

اشترت المكتبة الاهلية في باريس مخطوط هذه السواعية ، في السنة ١٩٣٩ ، بمبلغ ٧٥ الف فرنك ، وهو مخطوط ثمين يرتقي الى اواخر القرن الرابع عشر تزينه تصاوير عديدة دقيقة الرسم ، بديعة التلوين ، على طريقة خطاطي القرون الوسطى من الرهبان . ومن الطف ما ورد من تلك التصاوير ما يتعلق بسيرة المسيح والعذراء كميلاد المسيح ، والزيارة ، والفرار الى مصر ، والآلام وغيرها . وقد درس المخطوط درساً مستوعباً القانوني ف . ليروكه فوصفه ، وشرح محتواه ، واثبت تاريخه ، وتاريخ مَن ملكه من الكبار والكتّاب ، مذيّلاً ذلك باربع عشرة لوحة تمثل ما حسن من تصاوير المخطوط .

ر . ش .

في الشؤون الشرقية

EMILIO DE LA BARRERA, Los Equinos Auquenidos y estadistica Ganadera de la Provinica de Chumbilcias. In-8°, 220 pp. Lima-Perú, Sud América.

تربية الخيول في مقاطعة شُمبيلكاس

يفصّل هـذا الكتاب انواع الخيول في منطقة المؤلف ، وهو من القرّاد المعروفين ، ويدرس اصولها وتاريخ دخولها تلك البلاد ، واساليب تربيتها ، والعناية بها ؛ مفردًا درساً خاصًا لما يسميه « الجمل الوطني » في مقاطعة شُمبيلكاس وهو الحيوان المعروف باسم « اللّاما » .

ALFREDO BUSTANI, El Viaje del Visir para la Liberación de los cautivos, par el Vizir el Gassani el Andalusi. [*Publicaciones del Instituto General Franco para la Investigacion hispano-arabe*, Sección Segunda, N° 1]. In-8°, XV+114+XXXVI+120 pp. Lorache, 1940.

رحلة الوزير في افتكاك الأسير

تقدّم لنا (المشرق ٣٨ [١٩٤٠] ١١٢) ان وصفنا ما يقوم به معهد الجنرال فرانكو من جهود موفّقة في سبيل نشر الآثار العربية الموجودة في اسبانية ، عاملًا على تعزيز العلاقات الثقافية بين العرب والاسبان . وكانت باكورة اعماله نشرة كتاب « الكليّات » لابن رشد ، في طبعة وقف على اخراجها الاستاذ الفريد البستاني ، استاذ الآداب العربية في معهد الدراسات المغربية في تطوان . وها ان الاستاذ البستاني نفسه ، يخرج اليوم هذه الوثيقة الثمينة المعروفة « برحلة الوزير في افتكاك الأسير » من تأليف محمد بن عبد الوهّاب الغسّاني الاندلسي ، وزير مولاي اسماعيل الذي انفذه سفيرًا الى كارلس الثاني ملك اسبانية سنة ١١٠٢هـ. (١٦٩٠–١٦٩١م) في شأن مفاوضته في افتكاك الاسرى المسلمين . فدوّن تفاصيل رحلته في هذا الكتاب . وقد ظلّ الكتاب مخطوطاً — وان يكن قد عرفه بعض الاختصاصيين من المستشرقين فلخّصوا ما فيه ونقلوا بعض مقاطعه — حتى قام الاستاذ الفريد البستاني ، بعناية معهد الجنرال فرنكو ، بالتفتيش عن

مخطوطاته ، فتوفق الى ثلاث منها اعتمدها في طبعته ، بعد ان مهّد لها بمقدمة وجيزة في حياة المؤلف ، وفي كتابه ، ومصيره بين النقاد والمؤرخين ، وفي حياة مليكه مولاي اسماعيل . ونشر ترجمتها الى اللغة الاسبانية ، ملحقاً بها فهرساً جغرافيًا باسماء المحلّات المذكورة في الرحلة ، بالعربية والاسبانية ، وجدولَين واحدًا بالاصطلاحات والتعابير المغربية الوارد ذكرها مع شرحها ، وآخر بالالفاظ والتعابير الاسبانية التي استعملها المؤلف في رحلته واثبتها محرّفة » ، ثم فهرساً ، بل معجماً جزيل الفائدة ، للاعلام الوارد ذكرها في الكتاب باللغتين العربية والاسبانية . فكان هذا العمل مساهمة ثمينة في تقدّم الدروس المغربية يعرفها الاختصاصيون فيشكرونها للاستاذ البستاني ولمبعد الجنرال فرنكو.

A. Baries, Avenir de l'Afrique du Nord, Opuscule in-8° carré, 66 pp. Paris, Librairie du Recueil Sirey, 1939.

مستقبل افريقية الشمالية

كانت افريقية الشمالية في حالة اقتصادية تكاد تكفي سكّانها. اما الآن وقد اخذ عدد السكّان يتكاثر يوماً عن يوم ، واخذت الحاجات تتعدّد مجاراةً لمظاهر التقدّم ، فوجب ان يُعاد النظر في الموارد الضرورية لإنالة هؤلاء السكّان اساليب الحياة العصرية السهلة . وهو ما يقوم به المؤلف مظهرًا الاعمال والمُنشآت الجديدة ، ولا سيما في مراكش بتأثير المرشال ليوتي ، كحفر الآبار ، وتعبيد الطرق ، وبناء المستشفيات ، وانشاء الاسواق العامّة . مما تشترك فيه السلطة الفرنسوية والسلطة الوطنية في اتفاق مخلص . ولا شكّ في ان مستقبل افريقية الشمالية ، اذا ما تتابعت هذه الأعمال ، يكون على ازدهار متواصل . ولا يسعنا الّا ان نتمنّى مثل هذا الاهتمام لبلادنا المحتاجة ، على الأقلّ ، احتياج افريقية ، للتنظيم والاهتمام بمستقبلها.

ب. م.

مفرق الطريق

بقلم بشر فارس

مطبعة المعارف ، مصر ، ١٩٣٨ — ٦٠ ص. كبيرة بقطع الربع — الثمن ١٢ ق.م.

هي مسرحية منثورة ذات فصل واحد من النوع « الرمزي » . وانها لعلى

جانب كبير من الغموض مما احتدى المؤلف الى وضع توطئة « يبسط فيها الاسلوب الذي اجراها عليه » وكتابة تبيين يحدّد فيه مدار الرواية ، فاذا هو مغالبة بين العقل والشعور هنيهةً يلتقيان في مفرق طريق ينفرج عن اليمين منارًا وصاعدًا وعن اليسار مظلماً ومنحدرًا . « اما الجانب المظلم فحيث يقبر الشعور العقل فينحدر المرء ، وقد عمي رشده ، الى غاية تحترق عندها النفس ؛ واما الجانب المنار فحيث يصرع العقل الشعور فيسلك المرء في صعود مثلوجة يحيا عندها بنجوة من الاحتراق ، يحيا كمثل شجرة شظف عودها وجفّ ورقها وذوى زهرها . . . »

قال المؤلف في تحديد رمزيّته انها ليست بوقوفة على الرمز يشير الى شيء آخر . ولكنها — فوق ذلك — استنباط ما وراء الحس من المحسوس وابراز المضمر وتدوين اللوامع والبوادء ، باعمال العالم المتناسق المتواضع عليه المختلق اختلاقاً بكدّ اذهاننا ، طلباً للعالم الحقيقي الذي نضطرب فيه رضينا او لم نرضَ . . . »

وهو عالم « تدهشنا ظواهره وترعنا بواطنه وتعجزنا مبادئه » ، هو « عالم الوجدان المشرق والنشاط الكامن والجماد المتأهب للتحرك . . . » مما لا يدرك الا « بالاحساس الدفين والادراك الصّرف والتخيُّل المنسرح . » واذن فالرمز « بعيد ان يكون لوناً من التشبيه او الكناية الى غير ذلك من ضروب المجاز (التي) للذهن في وضعها ثم قبولها الحظّ الاعلى . » ان هو الّا « صورة او قل سرب صور جزئية ينتزعها المنشئ من المبذول كما تُنتزع الاشكال من هيئات الموجودات على مرقم رسّام موفور الحواسّ ، مشغول المخيلة مُحدَّث القلب يَعُدُّ الملموس مُنبثقَ الانطلاق الى عالم امثال ، الى عالم روحاني يوفق بين الواقع والموهوم . »

— ويرى العارفون ان هذه الافكار صدى عربي لأحدث النظريات الغربيّة في علم النفس والفن فضلُ المؤلف فيها انه نقلها الى الضاد في اسلوب شخصي ولغة جميلة ترفل بالأصباغ الصوفية الجذّابة . ألا ترى اثر فرويد مثلًا في ما جاء في التوطئة ايضاً من ان الفن معوان « للغريزة » على التخلص من « الكبت » ؟ واثر ڤاليري في تشبيه « المنشئ » بالراقصة « تنحرف عن قواعد الرقص المضبوط فتة المتأمم اعتيادًا لا اندفاعاً ، فتابى ان تخط اشكالًا محصورةً في نظام سرعان

ما يُهتدى اليه . . . واذا تكتفي بالتلوي والتوتر ، والنزوان والتقبض ، عن انفعالات احساسها الموسيقي (فاذا) بالسماع ينقلب حركةً ! » ؟

والواقع ان « ڤاليري » يشبه « الشعر » بالرقص الذي لا غاية له الّا الترنح والتطريب . اما النثر فيشبّهه بالمشي : ذلك ان النثر غايته « البلاغة » والافهام ، كما ان المشي غايته البلوغ في وقت معين من الزمان الى نقطة معينة من المكان .

والحال ان لفظة « منشيء » التي يستعملها الاستاذ فارس قد تنطبق في آن معاً على النثر والشاعر بيد انه يغلب عليها معنى الصنعة والتأليف لا معنى الارتجال كما في قوله : « انما المنشيء يعرض عن المراسيم الجامدة إرادةً ان يجعل الكتابة لحناً يغلّب فيه الارتجال الملهَم على الصناعة الموقوفة . . . »

هذا ، ويقلقنا في آراء المؤلف نزوع فوضوي الى التحرر من كل منطق زعماً منه « ان المنطق اصطلاح آلته العقل » وان « العقل انما يجرّد الاشياء او يشذّبها ثم يغفل بعضها او يجهل بعضها » فيكون « الترضيح الذي ينتهي اليه اقرب الى الاختراع منه الى التحقيق » ، بينا الفن كلّ الفن « اثبات البرق الذي التوى في السحاب فغزا الظلمة لحظة » و« تدوين اللوامع والبواده باعمال العالَم المتناسق المتواضع عليه الخ . . . »

اننا نشارك الاستاذ فارس رأيه في ان للعقل والمنطق والاستنتاج حدودًا ، كما اننا نقول بان غاية الشعر غير التعليم والتفهيم وإقامة البرهان . ولكننا نقول كذلك ، مع احدهم ، ان العقل والمنطق في الشعر وسيطة لا غاية ، فهما اشبه شيء بتلك المعالم البيضاء تهدينا ، وسط العتمة النيّرة ، الى الواحة المنحورة التي نسميها شعرًا وروعةً شعرية

□

وبعد ، فلننتقل من عالم الرأي — وليس آن التوغل فيه الآن — الى عالم الواقع ولنقل كلمتنا مقتضبةً في الاثر بعد ان قلناها موجزةً في النظر :

في اعتقادنا ان مفرق الطرق مبنية على جهل لحقيقة المسرح . فما لا شك فيه ان الصبغة « الاجتماعية » اقوى في هذا الفن الراقي منها في غيره من الفنون وهو ، الى ذلك ، على حدّ قول لويس جوڤيه ، حوار بين الممثل والمشاهد والحوار ،

بطبيعة حاله ، لا يقوم الّا على التفاهم المتبادل . ورغبة الكاتب في ان يجعلنا نشاركه عمليّة الخلق لا تسوّغ هذا الابهام المفرط في فنّ هذه طبيعته.

اضف الى ذلك ان فناً لا يبالي بالعقل ، كفن الاستاذ فارس ، لا يستند في نهاية الامر الّا الى الحواس . والواقع ان المؤلف يعنى العناية كلها بالتزيين واللباس والتنوير والسماع الخ . . .

وهذه الظاهرة تخبي. جهلًا لطبيعة الكلام الذي هو عنصر المسرح الاساسي. والكلام اداة تعبير قبل كل شيء اي انه من العقل واليه . وقد قال ده سانتيس ما معناه : لا يعدل قوة الكلام وتفوّقه كاداة تعبير ، الا ضعفه عندما يُتوجّه به الى الحواس ، فهو اذ ذاك اعقم الوسائل التي يملكها الفن في تقليد الطبيعة والحياة . فمن الجرأة بمكان قصيّ ان يُستند في التعبير عن حالات نفسيّة شاذّة ، وآراء فلسفية مثالية ، وتحقيقات اجتماعية عادية ، الى التنوير والسماع واللبوس ؛ كما انه من التهور بمكان قصيّ ان يُستند الى الحواس — وان ارتقت الى درجة « الشعور » — في تصوّر هذه الحالات وتفهّم هذه الآراء .

ولا يذهبنّ المؤلف مذهب الاستاذ توفيق الحكيم — وتأثير شهرزاد في مفرق الطريق بادٍ ظاهر للعيان — فيقول ان مسرحيته ما وُضعت حتماً للتمثيل ، وانه لم يختر الشكل الروائي الّا لانه اكثر مؤاتاةً لغرضه واشد ملابسة لما همّ به من الامر . فاذا كان كذلك طلبنا اليه ان يشرح لنا معنى هذه الفترة التي وردت في التوطئة وننقلها بالحرف . قال : « واما لغة المسرحية فقد اردتها سهلة ، لانه من العسف ان يُغرب المؤلف او يتكلف الصياغة ابتغاء التهويل ، ولا سيّما اذا ألّف للمسرح ، ذلك ان المسرح هو مَنقل الوان الحياة . »

وفي الختام نسأل ادباء مصر القوميين — والمؤلف منهم على ما يظهر — هل من المناسب حقاً ، في بدء هذه النهضة ، ان يعنى الادب العربي الحديث بعرض دروس ادبية تتناول نفسيات مشوشة كنفسية سيدة (بطلة الرواية التي نحن بصددها) وهي القائلة مخاطبةً « مغريبا الى الشعور » : ألم اقل لك اني لست انا ؟ . . .

اننا ، مع مراعاة حقوق الفن في الحرية او الاستقلال ، نجيب عن هذا السؤال نفياً .

ج . ع .

نشرات بروتستانتية

١ من دحرج الحجر ؟

محام يقيم البينات

تأليف الاستاذ فرانك موريسون المحامي ، نقله الى العربية حبيب سعيد.

٢٢ ص متوسطة صغيرة - دار « الشرق والغرب » بولاق مصر ، وكندرائية سنت جورج بالقدس الثمن: ٨ غ م.

٢ رسائل الاخلاق الدينية

تأليف الاستاذ لطفي ليفونيان

سلسلة ابحاث وجيزة موزّعة في سبع رسائل صغيرة كما يلي :

١) ما هو الدين ؟
٢) اين هو ينبوع القوة في الدين ؟
٣) اين هو السلطان الديني ؟
٤) ما هي علاقة الدين بالمسائل الاجتماعية ؟
٥) ما هو الايمان بالله ؟
٦) الحكم على الطبع والنفس.
٧) ما هي الخطيئة ؟

والمجموع ١٧٢ ص. حجم صغير - دار «الشرق والغرب» ، بولاق مصر ؛ ثمن الكرّاس : نصف غ م.

تواصل دار «الشرق والغرب» البروتستانتية الانكليكانية في مصر نشراتها الدينية والاخلاقية بنشاط لا توقفه الحرب وعراقيلها . ومن الطبيعي ان تكون اغلب هذه الابحاث منقولة عن التآليف الغربيّة ، ولا سيما الانكليزيّة منها ، كما انه من الطبيعي ان تكون بجملها ، على محاسن بعض اجزائها ، غير موافقة للقرّاء الكاثوليكيين لما في عقيدتهم من التعلّق بكنيسة ظاهرة خُوّلتْ سلطة المسيح على الارض ، وبأسرار مقدّسة هي الواسطة الحيّة لاستمداد نعم الرب على عباده . ولكن ، اذا استثنينا القرّاء الكاثوليك ، نرى هذه المنشورات مفيدة كل الفائدة لمن سعى وراء الله بنيّة صالحة وقلب نقيّ.

اما الكتاب الاول « مَن دحرج الحجر » ? Who Moved the Stone فمعرّب عن الانكليزية . وقد كان له بين الناطقين بهذه اللغة ، في اوربة واميركة، ضجّة واسعة يجدر ان يحصل عليها في ثوبه العربي الجديد بين اهالي الشرق .

جاء في المقدّمة ان المؤلّف الاستاذ فرانك موريسون من كبار رجال القانون في انكلترة ، وقد بدأ حياته متأثّرًا بالنزعة العلمية التي سادت القرن التاسع عشر وبآراء النقدة الجرمان خاصّة ، الذين نبذوا روايات الانجيل الكريم . فشرع اولًا يُحدّث كتابًا عن السبعة الايام الاخيرة من حياة المسيح في ضوء بحوث العلم ، متوليًا النظر في القضيّة كمحامٍ ضليع . وذهب في بحثه مذهب رجل القانون الدقيق في تصوير الوقائع ، وتفنيد الاعتراضات ، واثبات الادلة . فكانت النتيجة انه بعد ان بحث وراجع وفنّد أخرج في آخر الامر كتابه هذا على عكس ما كان يقصد ، فاثبتَ فيه حوادث المحاكمة ، والصلب ، والقيامة ، بالادلّة القانونية المنطقية الجازمة .

وهو يبدأ بحثه من ليلة القبض على المسيح . ثم يسير بالقارئ خطوة خطوة متتبعًا الحوادث ، معلّلها بتدقيق حتى يصل به الى صباح القيامة . وقد جاءت الترجمة العربية حسنة الاسلوب متقنة الطبع .

كتب قيد الدرس

Abbé Th. Moreux, Où sommes-nous ?

Mgr Tihamer Toth, Famille et Mariage ?.

— Les Msisionnaires au Travail.

V. Sinaïski, Culture et Droit.

J. Vendryes, Meillet (1866-1936).

Marteau de Langle de Cary, Les Saints du Calendrier.

J. Georgesco, Une enquête sur l'Union des Églises en Roumanie.

P. Thomsen, Palastina-literatur,V Band.

L. Gardet, Raison et foi en Islam. Texte d'Alghazali traduit de l'arabe et annoté.

Asad Talas, la Madrasa Nizamya et son histoire.

H. Afchar, l'Organisation du Crédit rural en Iran.

Olga Pinto e Georgio levi Della-Vida, Il Califfo Mu'awiya I di Aḥmad ibn Yahya al Baladuri, Traduzione annotata.

Tovia Ashkenari, Tribus semi-nomades de la Palestine du Nord.

M. B. Affre, Le balcon sur le désert.

J. Heywoth Dunne, An Introduction of the History of Education in modern Egypt.

R. Levy, Ma'alim Al Qurba by Ibn al Ukhuwwa (*E. J. W. Gibb Memorial*).

K. Jahn, History of Ghazan Khan by Rashid al Din (*E. J. W. Gibb Memorial*).

Abbot, The Kurrah Papyri From Aphrodito in the Orie tal Institute.

G. Barbera. Elementi Italo-siculo-veneziano-genovesi nel linguaggi Arabo e Turco.

Islam Ansiklopedisi, traduction turque de l'Encyclopédie de l'Islam 1. Cür : AB-Abdul-Kadir — Istanbul, 1940.

محمد رشيد رضا : محمد

محمد عبد الهادي ابو ريـدة : وجهة الاسلام ــ تأليف الاساتذة جيب

وماسينيون وكامفماير وبرج والكولونيل فرار. نقله عن الانجليزية

عبد القادر محداد : كتاب زاد المسافر وغرة محيا الادب السافر ، لابي بحر صفوان بن ادريس التجيبي المرسي

ر. شتروطمان : بيان مذهب الباطنية وبطلانه . منقول من كتاب قواعد عقائد آل محمد — تأليف محمد بن الحسن الديلمي

انيس المقدسي : ديوان ابن الساعاتي : الجزء الثاني

پ كراوس : دراسات في تاريخ الترجمة في الاسلام

الخوراسقف بطرس حبيقه : مآثر عريضه : الجزء التاسع

عبد المنعم الغلامي : مآثر العرب والاسلام في القرون الوسطى

سامي حداد : مسند امير المؤمنين عمر بن الخطاب عن النبي : تأليف ابي يوسف يعقوب بن شيبه بن الصلت

جبرائيل جبور : عمر بن ابي ربيعة : الجزء الثاني

اسد رستم : مصطلح التاريخ

قسطنطين زريق : الوعي القومي

عمر فاخوري : الباب المرصود

توفيق عواد : الرغيف

خليل تقي الدين : الإعدام

سامي الكيالي : سيف الدولة وعصر الحمدانيين

الاب بولس سويد : الانسان ذلك المجهول

الاب انستاس الكرملي : نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها

يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية

علي محمود طه : ليالي الملاح التائه

الياس ابو شبكة : الالحان

بشر فارس : مباحث عربية

وديع عقل : ديوانه

انطون ضاهر العقيقي : ثورة وفتنة في لبنان

العقدة الاولى التي كانت تحزّ في قلبه هي عقدة الحياة. واذا قلت « الحياة » وجب عليّ في الحال ان اميّز بين معنيين منفصلين لهذه اللفظة. فثمّت « الحياة » بمعناها الروحي الشخصي الكياني. هذا هو المعنى الذي عناه شكسبير وغرته مثلًا عندما استعملا هذه اللفظة ، وهذا هو المعنى الذي قال به ارسطو عندما اكّد ان الحياة الحقة انما تنحصر في الله وحده . اما الحياة عند برغصون فلها مفهوم آخر يختلف كل الاختلاف عن هذا المعنى الروحي. تتركب « الحياة » البرغصونية من عنصرين مختلفين: العنصر الاول هو ما يقوله علما البيولوجيا والسيكولوجيا الايجابيان بشأن الحياة ، والعنصر الثاني هو ما يستخرجه برغصون نفسُه من مشاهدة ذاته وتحليل حالاته النفسية المباشرة. واذن المصدران الأساسيان لمشكلة برغصون الاولى هما علم الحياة بمعناه الاوسع والتحليلات السيكولوجية الانعكاسية .

من هذين المصدرين يخلص برغصون الى تصوير خاص لكُنه الحياة . الحياة بحسب هذا التصوير هي نزوع مستمرّ وثّاب الى الخلق والابداع . ولذلك كل تعليل للتطوّر البيولوجي قائم على الميكانيكية ، اي على اعتبار عوامل الأقدار المتخبطة والصدفة العمياء أنها هي العوامل الحاسمة في تسيير التطور ، وكل تعليل قائم على الغائية ، اي على اعتبار ان الحياة تتطوّر وفقاً لغايات واضحة تضعها امامها ، هذان التعليلان للتطور يقصران كل التقصير في نظر برغصون عن حقيقة التطور . فبدلًا من أن تكون الحياةُ رهنَ الصدفة والاقدار ، كما يزعم الماديّون ، هي في حقيقتها مبدأ ايجابي يكافح المادة ليل نهار بغية التحرّر من عبوديتها. وبدلًا من أنْ تكبّل الحياةُ نفسها بصور واعية ترمي الى تحقيقها ، كما يذهب اليه [illegible] ، هي في ذاتها قوة مندفعة لا تستطيع ان تعيّن من الآن جميع ما ستفضي [illegible] . سرّ الحياة اذن يقع في دافع الحياة ، في اعتزامها على تذليل كل عقبة تعترضها في تفتحها الزمني ، في تطوّحها الحرّ نحو المستقبل المفتوح ، في هذا الزخم المريع الذي تفتّح في التاريخ عن هذه الألوان اللامتناهية من النبات والحيوان الى ان استقر اخيرًا فيّ وفيكم وفي برغصون نفسه ، اي في الانسان ، حيث الخلق والابداع يفعلان بحرية لا عهد للحياة بها من قبل. من كل هذا ينتج معنا أننا لا نكون انفسنا ولا نعرف الحقيقة ولا ننفذ الى سر الوجود إلّا اذا اندفعنا

بسذاجة طبيعية بريئة مع هذا الزخم الحيوي الوثاب ، خالقين ما سمحت لنا الظروف بخلقه ، مُبدعين ما كان كامناً في طيات الحياة التي نحملها .

في هذه الفكرة الأساسية ، التي استخلصها برغصون من علمَي البيولوجيا والسيكولوجيا ، ومن مشاهداته الانعكافية لنفسه ، تتصور وتتبين جميع فكره الأساسية الاخرى. فالبصيرة او الحدْس هي مقدرتنا على الرجوع المباشر الى تيار الحياة الخلاق واشتراكنا في عملية خلقه. ونحن ليس بوسعنا ان نقدرَ الاشياء قدْرًا كلياً ، ولا ان نشعر بالحياة الحرة تنبضُ في كل شيء في العالم ، نحن لا نستطيع ان نعي الماضي المتراكم المخبوء في كياننا ، إلّا عن طريق البصيرة. وبما ان البصيرة تقودنا هكذا الى حركة الحياة المبدعة فهي مفتاح الحقيقة الاوحد. اما العقل فلا يستطيع ادراك الحقيقة لانه لا يُكبُّ إلّا على الاجسام الجامدة ولا يعقل الا فكرًا غير متحركة ولا يفهم إلّا ما ينطبقُ على هذا الفضاء المتقطع الميت ، بينما الحقيقة هي في الحياة والحركة والزمن . الحياة تُحيا ولا تُعقل ، تبدع ولا تدرَك ، تنطلق حرة نحو المستقبل دون ما تبعة لعقل يُرشدها او وعي ينير لها السبيل . الحياة لا تُفهم ، اي لا تكون ، إلّا بالبصيرة ؛ والحيّ هو من يخلق ويُبدع ، لا من يتفلسف ويفكر .

على هذا المنوال تنتظم جميع عقائد برغصون الأساسية ضمن اطار الحياة . ولو كان لدي مُتسع من الوقت لحاولت ان احبُك فكرةَ الزمن والذاكرة ، فكرةَ الماضي والمستقبل ، فكرة التغيّر المطلق وما يستلزمه من ضرورة الحرية والاختيار ، فكرة الخلق الروحي ، فكرة البقاء والتراكم — لو كان لدي متسع من الوقت لنسجتُ جميعَ هذه الفكر البرغصونية الأساسية في نظرة نظامية واحدة .

اما مركز برغصون في العالم الفلسفي فلا اظنني مغالياً اذا زعمت أنّ هذا الراحلَ العظيمَ اعمقُ جميع الفلاسفة الاوروبيين المعاصرين أثرًا واوسعهم شهرة في الاوساط الفلسفية الحرّة. ويشهد بذلك ائمّةُ الفلاسفة الانكلوسكسونيين . هذا وليم جايمس مثلًا يقول في كتابه « كون متعدّد » إن برغصون احدث في

نفسه ثورةً اساسية ادّت به الى انكار مزاعم العقل في البلوغ الى الحقيقة ، وان الانسان بعد قراءة برغصون تعتريه رعشة من الحرية الروحية لم يكن له عهد بها من قبل. ويستطرد جايمس الى القول بان كل صفحة من صفحات برغصون تفتح امامنا افاقاً جديدة ، فكلامُه « كنسة الصباح وكتغريد العصافير »[1]. وهذا صموئيل الكسندر يقول في كتابه « الفضاء والزمان والألوهة » إنه ما من احد خدم الفلسفة كما خدمها برغصون في تأكيده على ضرورة اعتبار الزمن حقيقة نهائية[2]. والجنرال سمطس ، الرئيس الحالي لوزارة جنوبي افريقية ، يقول في كتابه « الكلية والتطوّر » إنّ برغصون المعلّ فلاسفة التطوّر واشدّهم تأثيرًا في عصرنا هذا[3]. وفي كتابه « الفلسفة والحضارة » يقول جون ديوي إنّ كلّ واحد يقرأ اليوم برغصون[4]. واخيرًا يعترف استاذي هويتهد في مقدّمة اهم مؤلّفاته « العملية والحقيقة » بانه مدين في الدرجة الاولى لبرغصون[5] ، ومن يدرس هويتهد يشعر بتأثير برغصون في كل صفحة من صفحاته على وجه التقريب .

ويسرني بهذه المناسبة أنْ انقل اليكم خبرًا كتبياً وهو ان الترجمة الرسمية المعتمدة في اللغة الانكليزية لاشهر كتب برغصون ، اعني « التطوّر الخلّاق » ، قام بها رجل اسمه ارثر متشل تحت اشراف برغصون ووليم جايمس في آن واحد. وقبل رجوعه الى اميركة ودراسته للفلسفة في جامعة هارفارد وقيامه بهذه الترجمة ، كان السيّد ارثر متشل معلماً بسيطاً للغة الانكليزية في جامعتنا هذه ، هنا في الدائرة الاستعدادية ، بين سنة ١٨٩٤ وسنة ١٨٩٦ .

(١ William James, *A Pluralistic Universe*. New York, 1928, pp. 265, 266, 219

(٢ Samuel Alexander. *Space, Time and Deity*. London, 1920, vol. I, p. 150

(٣ General Rt. Hon. J. C. Smuts, *Holism and Evolution*. New York, 1926, p. 92

(٤ John Dewey, *Philosophy and Civilization*. New York, 1931, p. 202

(٥ Alfred North Whitehead, *Process and Reality*. New York, 1930, p. VII

اما اثر برغصون في الفكر العربي فإخاله اثرًا غير مباشر ، ذلك لاننا نقرأه في اللغتين الفرنسية او الانكليزية ، ولأن مصنفاته لم يترجم بعدُ واحدٌ منها الى اللغة العربية . ولا اظن دراسةً واحدةً وافية ظهرت بعد في لغتنا عن هذا الفيلسوف ، هذا اذا استثنينا بضع مقالات مستعجلة نُشرت في بعض المجلات هنا وفي مصر . واذا ذكرنا ان مؤلفات برغصون والدراسات التي أُلفت في برغصون في اللغات الاوربية تُحصى بالمئات ، واذا ذكرنا كذلك ان برغصون ليس بالفيلسوف الوحيد الذي طبع الفكر الاوروبي والذي لا نكاد نعرف عنه شيئاً ، ادركنا مقدار الجاهلية اللامتناهية التي نتخبط في ظلماتها وعظمَ العمل المنتظر من كلّ طالب للحقيقة منا في المستقبل . ومع ان اثر برغصون المباشر في الفكر العربي يكاد يكون عدماً فاثرُه غير المباشر واضح في بعض الكتاب والشعراء الرومنطيقيين الثائرين على العقل واحكامه ، المنفصلين عن التراث الفلسفي ، المؤلهين للغريزة والبصيرة والعفوية وكلّ ما يمتّ الى العاطفة والشعور الذاتيين .

ومع ان برغصون لم يبحث في نظامه الفلسفي امورًا احبُها في غاية الأهمية ، ومع انه لم يؤلف فلسفتَه من داخل التراث الفلسفي الايجابي ، فاظن اننا نستطيع في العالم العربي ان نستفيد من حكمته فوائد ثلاث ، اكتفي بمجرد الاشارة إليها :

اولًا تأكيدُه على حقيقة الروح وتعاليها على المادة ، وذلك في وجه المادية والميكانيكية الطاغيتين على العالم . يقول برغصون إن المادة وما يمتّ اليها كيان منحطّ بالنسبة الى الروح النزاعة المبدعة ، واذن من يتجهْ ماديًا فهو متجهٌ آخرَ الامر نحو الفناء والعدم ، مهما تفنن في ارجاء اجله المحتوم . اما من يتجهْ نحو الروح الوثابة ، الروح التي دأبُها محاربةُ المادة بجميع مظاهرها ، فهذا لا خوفَ عليه ولا خطرَ على تدهوره .

ثانيًا تأكيدُه على حقيقة الزمن وانه لا يقع في تسلسل الاشياء تسلسلًا خارجيًا ، بل في انبثاقها انبثاقاً داخليًا تراكميًا . الزمن هو نمو الحياة المتواصل . الزمن هو الروح الخالقة المبدعة ، لا ما تخلق وتُبدع . الزمن هو الانطلاق الحرّ

نحو المستقبل ، لا الحنين الرجعي للماضي . والماضي ذاته ليس ماضياً الّا بقدر ما هو حيّ ينبض في كيان الحاضر المندفع نحو المستقبل . واذن الماضي انما يوجد لخدمة المستقبل عن طريق الحاضر .

ثالثاً اذا كان جوهرُ الاشياء يقع في عمليّة تغيّرها فكل من يحارب التغيُّرَ الصحيح ينصبُ نفسَه عدوّاً لجوهر الاشياء ، وجوهر الاشياء بالطبع لا يقهر ، لانه هو الحقيقة . وحريّ بنا نحن في العالم العربي ان نتعلم امثولة التغير ، وان نؤمن بانا بالفعل قادرون على تغيير انفسنا ، وان قرارات حياتنا الهامة لم تُتخذ كلُها بالنيابة عنا في الماضي ، وان خطوط كياننا لم تُكتبْ كلّها منذ الازل . برغصون يعلمنا أنَّ الحرية من خصائص كياننا الطبيعي ، فـاذا اردنا نستطيع نحن ان نقرّر مصيرَنا بايدينا .